مع الشابي في ديوانه

حلمي محمد عبد الهادي



دار الفكر
للنشر والتوزيع

مع الشابي في ديوانه

الطبعة الأولى ١٩٨٧

حلمي محمد عبد الهادي

مع الشابي في ديوانه

دار الفكر
للنشر والتوزيع

عمّان - سوق البتراء (الحجيري) . ساحة الجامع الحسيني .

بين يدي البحث

بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على سيد المرسلين وبعد:

فهذه دراسة لديوان أبي القاسم الشابي، أضعها بين أيدي القراء بصورة حرصت على جدتها كل الحرص، وحاولت من خلالها جلاء بعض الجوانب الغامضة والتي بقيت تتطلب إجابة رغم كل ما كتب عن هذا الشاعر، وأرجو أن أكون قد وفقت في عرض جوانب كانت خفية، والكشف عن قضايا لم يتعرض لها من تصدوا للكتابة عن هذا الشاعر، الذي غرّد للوطنية، ولنصرة المظلومين، وثوى وهو في ريعان الشباب، بعد مرض لم يمهله حتى يستكمل رسالته إلى الإنسانية فقد كان الشابي فيلسوفاً يسعى من أجل فكرة شاملة، يريدها أن تصل إلى عقل كل إنسان أينما كان.

ولقد ارتبط شاعرنا بعلاقة روحية مع عدد من الشعراء العرب الذين عاصروه، فكان من الطبيعي أن أتعرض لتلك العلاقة، وأن أحاول إظهارها من خلال إبراز ما اشتركوا فيه من صفات، فقد عايش الشابي عدداً من الشعراء من أمثال: إبراهيم طوقان ـ شاعر فلسطين ـ ومن شعراء المهجر أمثال: جبران ـ الذي أشعل في نفسه أكثر من معنى ـ ثم علي محمود طه، وإبراهيم ناجي ومحمود حسن إسماعيل، وعقدت بحثاً للحديث عن لغة الديوان والألفاظ المستعملة ودلالاتها اللغوية، وختمت البحث بكلمة قصيرة تحت عنوان:

«الديوان في الميزان»

... على أن أبرز ما في الموضوع، تلك الفقرة التي تحكي قصة حبه، وتكشف عاطفته، فقد أوضحت من خلال أشعاره، وبالمقارنة التاريخية، أنَّ الحب قد تجدد لديه، وغزا قلبه بعد زواجه، ذلك الزواج الذي سبقه حبه الأول والذي صادفه قبل أنْ تتفتح أزاهيره. ومن ناحية أخرى فقد كانت وما زالت التهمة التي رماه بها خصومه، معتمدين على بعض ما ورد في أشعاره، وأعني بذلك تهمة الإلحاد، فتعرضت لهذا الأمر مستشهداً بأشعاره التي هي عندي دلالة على عمق إيمانه، لا على ضعف إيمانه أو إلحاده، كما ذهب قصار النظر وغيرهم من الماكرين الحاقدين في عصره، بسبب خصومات وخلافات في وجهات النظر ليس غير، ومن خلال هذا الأمر تعرضت لتلك النظرية الفلسفية التي حاول الشابي أنْ يكون رائدها في الأدب العربي الحديث، من خلال الحديث عن الفكرة الشاملة التي سيطرت على أشعاره، وهي فلسفته حول القضاء والقدر، والكون والحياة، فلقد كان في ذلك أستاذاً أسيء فهمه، فهاجمه الخصوم، وعاش في غربة روحية فوق أرضه ووطنه، وبين أهله وقومه.

المقدمـــة

من المعلوم أن الوظيفة الأساسية للفنون الأدبية، هي تصوير الأفكار والمشاعر والتجارب الإنسانية في صور تنبض بالحياة، وكذلك الإعراب عن آمال المجتمع وتطلعاته عن طريق إبرازها والتمهيد لها، وتحويلها من عالم التجريد إلى عالم التجسيد بالوسائل التعبيرية الفنية المتعددة، بحيث تذكي شعلة الحماس من أجل تحقيقها.

وعلى الفنان أن يفكر تفكيراً جاداً بجوهر الحقائق، وما لها من عمق وامتداد، فبدون الفكر لا يستطيع الإنسان أن يكون على وعي بما في دخيلة نفسه، وحيث أنَّ الحياة نفسها تعكس على الفنان دنياها بكل أبعادها التي تموج بأحداث مختلفة، وألوان متعددة، فقد كان لزاماً على الفنان أنْ يتجاوب معها، ويعبر عنها بوسائل مختلفة، حتى يقال إنه أدى رسالته الفنية على أقرب وجه من الكمال، وكلما كانت القضايا التي يعالجها الفنان إنسانية، اقترب أكثر فأكثر من رسالة الفن.

والشاعر كفنان، يستطيع أنْ يُدرك ما لا يدركه غيره من أبناء هذا المجتمع، فهو أقدر من غيره على إدراك نواحي الجـمال وتلمس خفاياه، وذلك بفضل ما لديه من مواهب، يحلو للبعض أحياناً تسميتها بالحاسة السادسة التي تصور له الأفكار، وتجسد في خياله كل ما يصبو إلى تحقيقه من غايات، وما يطمح إلى إنجازه من أهداف، وبهذا تكون الصورة لديه أنقى منها عندَ غيره، فيكون كمن يسير في طريق تشع عليه ومضات من نور، لا كمن يسير متخبطاً كالناقة العشواء، وعليه فإن القدر الذي تكون عليه هذه

الحاسة من القوة والضعف، هو المسؤول عن درجة تجسيد المشاعر والأفكار والأخيلة في صور تتفاوت في درجة تأثيرها تبعاً لشدة الومضة الحسية تلك.

وإذا ما أردنا الحكم على شعر، فلا بد من النظر إلى الموضوع وما عالجه الشاعر من معان، وإلى مدى القوة التصويرية التي لديه، ومقدار تلاحم المعنى مع اللفظ، ذلك أن العناصر الشعرية المتعارف عليها من خيال وموسيقا وصور، لا تكوِّن وحدها الشعر الجيد بمعزل عن الأفكار، فالشعر يسمو بسمو الأفكار، وتهون قيمته بانحطاطها، ولا بد للشاعر كي يسمو بشعره، من أن يستجيب لحافز قوي من شعور إنساني، وعاطفة جياشه، وخيال قـوي لا تصنُّع فيه، وألا يجري وراء توليد الصور بقصد إظهار البراعة، لأنه بهذا يتردى بشعره إلى التكلف المصطنـع، فتظهر أفكـاره مفككة، ويبدو التصنع واضحاً طاغياً على ما لديه من قيم يسعى إلى إبرازها، وأفكار يهمه أن يوصلها إلى سامعيه دون تكلف، لتكون أوقع في النفوس. وإنَّ أهم ما يجب أنْ ننظر إليه عند تقييم الشعر هو: ـ هل أدت الكلمات والعبارات الشعرية دورها في بعث صور إيحائية للأفكار التي تضمنتها، وهل سمت بفنها الأصلي الذي حاكته؟ وهل يتوفر صدق الوجدان في التجربة الشعرية؟.

ونحن في كل تلك الأسئلة، ننطلق من فهم واضح للشعر، باعتباره منافذ يطل منها الشاعر على مجالات إنسانية واجتماعية بالغة المدى.

وسوف أُحاول من خلال هذا البحث، إلقاء الضوء على شعر هذا النجم الذي خبا قبل أن يكتمل نوره، وذلك من خلال رحلة في أشعار ديوانه، فأوضح مواطن الضعف والقوة لديه، وما حاوله من تجديد في شكل القصيدة العربية، ومدى عمق التجربة لديه، ثم منزلة الشابي الأدبية، وما تضمنه شعره من نظرات فلسفية بدت متناقضة أحياناً بسبب تبدل الظروف عليه، حيث كثيراً ما كان يتنازعه الشيء وضده، فهو في الوقت الذي كان يشعر فيه بقيمة الحب في الحياة وما به من سعادة، لا ينسى شقوة المحب عند فراق الحبيب، ولا البلاء الذي يجره فقدان ذلك الحبيب، وهذه أمور

ك لكل إنسان، ولكن، من يحس بها ويجسدها غير الشاعر؟ وبذلك أن ما رُمي به الشابي من تناقض، وما أخذ عليه في هذا الأمر، ما هو إلا لمصلحته لا العكس، لأنه يدل على صدق شاعريته، حيث يظهر على يعته الإنسانية وسجيته الآدمية المتقلبة.

ثم إنَّ البحث يقتضي أن نتعرض ولو بشيء من الإيجاز لحياة هذا الشاعر الفذ من حيث مولده ووفاته، وبيئته التي عاشها، والمصائب التي واجهها، وأنْ نُلم بشيء عن طريقة نظمه لأشعاره، وعن نـزعته الاجتماعية والفنية.

حياة الشاعر في سطور

عاش في فترة ما بين الحربين العالميتين، فقد ولد كما هو معروف سنة ١٩٠٩ وتوفي سنة ١٩٣٤، وكان الوطن العربي إذّاك يعيش أياماً حالكة السواد، حيث وقع تحت وطأة المحتل الغاشم، فعانى من الفقر والظلم والقهر الاجتماعي، كما كان الجهل من السمات البارزة في المجتمعات العربية عموماً، حيث حرص المحتلون على عدم نشر التعليم، حتى لا تتسع مدارك الناس فتتعرض مصالحهم للخطر، فلا يَغُرَنَّ أحداً ما نسمعه أو نقرأه عن محاولات نشر العلم والثقافة من قبل المحتلين، أداء لرسالة إنسانية يحملونها، كما حدث مع نابليون بونابرت، حين قدم إلى مصر غازياً، وأحضر معه نخبة من العلماء، وحيث قام بإرسال البعوث العلمية إلى فرنسا، فكل هذا لم يكن من قبيل الحرص على العلم والثقافة ونشر رسالة النور، بل إنَّ أهدافهم الخبيثة لم تعد تخفى على أحد، حيث تمثلت في محاولاتهم لخلق مبشرين لسياساتهم بيننا، فإرسال البعوث العلمية واستقدام العلماء من فرنسا، لم يكن إلا من أجل عملية تطبيع اجتماعي، وللتتلمذ على أيديهم، وهكذا يخلقون جيلاً من المؤمنين بسياستهم، وهذا أقصى ما يكدحون لتحقيقه الآن، ونحن نملك أكثر من دليل على هذا القول، ويكفي أَنْ أُوضح أن قادة الحركات التحررية في بلادنا في المرحلة التي تلت تلك الحقبة الزمنية، لم يحاول إلا قلة منهم الخروج عن الأطر الغربية التي رسمت لهم من خلال الثقافة التي تلقوها، ومعنى ذلك أن تلك الفئة، كانت تتحدث بلسان عربي، ولكن بفكر غربي، ثم إننا نعرف الكثير من الأمثلة والحكايات عن أناس

درسوا في الغرب، وعادوا ليعيشوا غربيين في مجتمعنا الشرقي، فكان حال أولئك كحال المرأة العاقر، تسعى جاهدَة من أجل الإنجاب، فلما تم لها ذلك، أنجبت طفلاً متمرداً على كل عاداتها وتقاليدها على الرغم من تلك العاطفة القوية، التي تتمثل في حبه لها، وحدبه عليها، وإنَّ فيما كتبه المنفلوطي عن هذه الفئة ما يكفي لإظهار صورتها وحقيقتها.

واستناداً لما سبق ذكره، فقد سيطرت العشوائية على أفكار وتصرفات غالبية الشعوب العربية، حتى أنَّ دعاة الإصلاح كانوا لا يلقون إلا الجحود.

وعلى الرغم من كل ما سبق، فقد كانت تتهيأ للبعض فرص نيل قسط وافر من الثقافة العربية الأصيلة، وكان الشابي من تلك الفئة القليلة، إذ تهيأت له ظروف عائلية ساعدته على نيل ثقافة ممتازة، فوالده كان من خرّيجي الأزهر، وهو من أسرة الشابية، التي سجل لها التاريخ التونسي باعاً طويلاً في القلم والسيف.

لقد كان والد الشاعر، وهو الشيخ محمد بن بلقاسم الشابي، عالماً فاضلاً، درس في الأزهر، ثم بجامع الزيتونة في تونس، حيث اشتغل بعد تخرجه في القضاء، مما استوجب تنقله بين أماكن متعددة، الأمر الذي أتاح للشاعر أن يملأ عينيه من طبيعة تونس الجميلة، وأن يتعرف على طبائع الناس المختلفة.

بدأ أبو القاسم رحلته مع العلم والمعرفة منذ طفولته، حيث ألحقه والده بالكتّاب، فحفظ القرآن ابن تسع سنين، ولما بلغ الثانية عشرة من عمره، أدخله والده جامع الزيتونة، فأمضى ما يقارب تسع سنين، حصل بعدها على شهادة التطويع مثل والده، ولكن ميله للأدب ملك عليه إحساسه وشعوره، فلم يعمل في القضاء، بل اتجه إلى الأدب وخاصة الشعر. وكانت بداياته الشعرية، قد ظهرت مبكرة كما سنعلم، حين نبدأ رحلتنا في ديوانه، حيث سنجد له قصائد كتبها وهو في سن الرابعة عشرة، الأمر الذي لا يدع مجالاً للشك بأن تجربته الشعرية قد بدأت في سن مبكرة، يدل على ذلك، نضج التجربة الشعرية الأولى لديه، والتي تظهر من ديوانه أنَّه نظمها في سن الرابعة

عشرة، فلا يعقل أنْ تكون تلك هي البداية، إذ لا بد أن تكون قد سبقت بمحاولات فقدت وضاع أثرها، أو أنّه لأمر ما لم يُرد أنْ يطلع عليها أحداً.

والحديث عن أبي القاسم الشابي، هو الحديث عن زهور الصباح، تذوي وتذبل قبل أنْ تحتضن الشمس كبد السماء، فقد طوته المنية وهو في ريعان شبابه، ولكن كأسه، كانت مترعة بألوان الشراب من خلال تجاربه الكثيرة في تلك الحقبة القصيرة، وعلى الرغم من أنه لم يتذوق حلاوة العيش، إذ لم ير الهناءة إلا كسراب أو طيف في حلم، وعلى الرغم من قساوة الأقدار التي ما سَرَّته يوماً إلا كدرته أياماً، أقول، على الرغم من ذلك كله، فإننا نجده يحب في أول شبابه، ثم إنّه لا يلبث أنْ يفجع بموت الحبيبة، كل ذلك قبل أنْ يصل إلى سن العشرين، فإذا ما بلغها، فإننا نجده يفقد السند، بموت والده، وتوكل إليه مهمة الأسرة، ويصاب بداء تضخم القلب في السنة نفسها، فلقد قست عليه الحياة بشكل حاد، ومع ذلك نجد أن لديه مكاناً للحب من جديد.

تلك المصائب التي واجهت الشابي، وتلك الهموم التي رافقته بعد موت والده، لم تبعده عن قول الشعر، بل إنها فجرت ينابيعه الشعرية، التي غذتها هموم شعبه، فصار أقدر على تحسس موضع الداء في جسم وطنه، فكأنها الطعم الذي يأخذه الإنسان ليزيد من مناعته ضد الأوبئة، فلقد كانت تلك المتاعب والآلام عوامل تفجير لعبقريته، وعامل إثراء لتجربته الإنسانية في مناهضة الظلم أينما كان، فجاء شعره تعبيراً عما في نفوس المظلومين والمقهورين، وتصويراً نقياً لما تؤمله الشعوب المغلوبة على أمرها وتجسيداً لنظريات المقاومة السلبية لكل ما من شأنه أنْ يحط من قدر الأمة، من جهل وتفرقة وإعراض عن سماع كلمة الحق، وظلم الضعيف إلى ما هنالك من أمور من شأنها أنْ تنحدر بالأمة إلى قرار الهاوية.

لقد سجل الشابي في شعره كل همسة بينه وبين نفسه الكبيرة، ولأنه كان صادقاً في شعره، وتحدث عما يشعر به، فقد بدت موافقة متناقضة أحياناً، خاصة فيما يتعلق بنظرته للحياة وهذا دليل على الصدق الشعري، لأن الحياة نفسها متقلبة كالأنواء الطبيعية.

أما بواكير نظمه، فالواقع أن أول قصيدة يسجلها الديوان، هي قصيدة (الغزال الفاتن)، وتاريخ نظمها سنة ١٩٢٣ م، أي وهو في سن الرابعة عشرة، وفيها يتحدث عن تجربته الأولى في الحب. وأغلب الظن عندي، أن هذه القصيدة، هي التي عناها الدكتور عز الدين إسماعيل في تقديمه لديوان الشاعر، حيث ذكر أنَّ قصيدة (يا حب) هي أولى قصائده، علماً بأن الدكتور عزّ الدين إسماعيل لم يورد بين قصائد الديوان أية قصيدة تحمل هذا العنوان، أما إن كان يقصد بها قصيدته (أيها الحب) فهذه ليست أولى قصائده فقد نظمها سنة ١٩٢٤ م، أي بعد أكثر من سنة من نظمه لقصيدة (الغزال الفاتن)، أما قصيدة (الحب) الواردة في الديوان فقد نظمها سنة ١٩٢٧ م.

ويلاحظ على إنتاجه أولاً:

نضج التجربة الشعرية لديه منذ أول قصيدة حفظها لنا ديوانه، والتي قالها كما أسلفت في سن الرابعة عشرة، الأمر الذي لا يدع مجالاً للشك في أنها قد سبقت بقصائد، لم يرد الشاعر لسبب ما أن يثبتها، فقصيدة (الغزال الفاتن) التي تعتبر من وجهة نظر تاريخية، كما يبلغنا ديوانه على أَنها أولى قصائده، تظهر بوضوح عمق التجربة الشعرية لديه، فاستقامة الوزن وحسن اختيار الألفاظ وإجادة التلوين، وتتابع الصور، في ذلك النسق الفني البديع، وعدد أبيات القصيدة التي بلغت أربعة وعشرين بيتاً، كل ذلك يدل دلالة قاطعة على أنها قد سبقت بمحاولات أُخرى، أحبَّ الشاعر عدم نشرها، أو أنها ضاعت لسبب ما.

وإنَّ استعراضاً سريعاً لقصائد الديوان، ترينا غزارة إنتاجه في سنة وفاته وما قبلها، فقد بلغ ما نظمه من قصائد سنة ١٩٣٤، وهي سنة وفاته،أكثر من عشر قصائد، بينما نظم في السنة التي سبقت وفاته ما يقرب من سبع عشرة قصيدة، من بينها (الجنة الضائعة) (إلى الشعب)، (إرادة الحياة)، وغيرها من القصائد التي خلدت أبا القاسم الشابي، ورفعته إلى منزلة الشعراء العالميين، فهو في مقدمة الشعراء المناهضين للظلم والمدافعين عن حرية الإنسان أَينما كان.

.. أما طريقة نظمه لقصائده، فيحدثنا عنها صديق عمره الأستاذ زين

العابدين السنوسي فيقول: إذا رجعنا إلى أُدبائنا المعاصرين، عرفنا أَنَّ المرحوم أبا القاسم الشابي، لم يكن يستنزل الشعر، ولكنه كان يقبض عليه، بعد أَنْ تهاجمه الأفكار مهاجمة تمنعه من الراحة والنوم. فيصوغ القصيدة بيتاً بيتا. ولا ينام إلا بعد أَنْ يفرغ ما جاش بضميره شعراً محكماً، ثم ينام مطمئناً كأنما نزع عن ظهره عبئاً ثقيلاً، فإذا استيقظ في الغد متأخراً، وجدها على طرف لسانه، فينسخها عن ذاكرته مطمئناً وربما طاش عنه الشطر، فلا يرضى أَنْ يعوضه أبداً، وتبقى القصيدة بتراء في جيبه، يقرؤها علينا بتراء، لا يجسر على ترقيعها أبداً، إلى أَنْ يتذكرها ولو بعد شهر، فيتمها وينسخها في كُنّاشه.

هذا ما كان عن النزعة الفنية لدى الشابي، أَما ما كان لديه من نزعة اجتماعية، فقد كان سبباً من أَسباب الهجوم عليه من قبل خصومه وخصوم الأمة، فنحن نجده أَثناء دراسته في جامع الزيتونة، يضع شعره في صميم الحركات الإصلاحية، ونجد أن محاضرته (الخيال الشعري)، قد أثارت حوله ضجة عنيفة، لما حوته من أفكار إصلاحية، جرت عليه متاعب كثيرة، فاستهدف بحملة عنيفة، وهذا ما يظهر في شعره الذي رد فيه على منتقديه.

غير أَننا لا نستطيع أَنْ ننكر أَنَّ تلك الحملة، قد أَوجدت غمامة على نفسيته، ظهرت آثارها واضحة في شعره، حيث أَفصح عن يأسه من هذا الشعب، بسبب ما يلمسه فيه من هدوء ودعة، مكَّنت المحتل أَنْ ينشب أَظفاره في جسده كله، ولكن هذه الغمة، لا تلبث أَنْ تزولَ فيعود شاعرنا يدعو بقوةٍ إلى مناهضة الظلم.

.. كل هذا يظهر واضحاً جلياً في شعره الذي صور فيه المعاني الخيرة النبيلة، والذي تتجلى فيه العواطف الإنسانية الكبيرة، حيث صوّر المأساة الإنسانية، داعياً إلى مواجهة الحقائق مهما تكن قاسية، وأَثناء ذلك كله، نجد نفسه موزعة في متاهات الألغاز الخالدة في سر الكون.

أَما عن حياته الاجتماعية، فمن الثابت أَنه قد تزوج من فتاة تونسية، ولكنه لم يكن موفقاً على ما يبدو، وهذا الأمر كثيراً ما يحدث لكثير من حالات الزواج التي تتم بعد حب لم يثمر، حيث تبقى النفس معلقة

بالحبيب، فلا ترى الوجوه إلا من خلال وجهه، خاصة، حين لا يكون لأحد من المحبين دور في إفشال تلك الصلة، كأن يكون السبب موت الحبيبة، كما هو الحال مع الشابي، فنحن نعلم أنه قد أحب في مطلع شبابه، بل إنَّ أول قصائد ديوانه كانت لتلك الحبيبة، ولكن يد المنون قد امتدت لمن أحب، فاختطفتها قبل أنْ يبتني بها، فكان من الطبيعي أن يلاحقه طيفها حتى بعد زواجه الذي تم وهو في الحادية والعشرين من عمره، وقد رزق من هذا الزواج ولدين: (محمد وجلال). وأكاد أَقول إنَّ نار الحب قد أُضرمت في فؤاده من جديد، وبعد زواجه، كما يتضح من أشعاره، وكما سنبينه في موضعه، إذ كثيراً ما يسعى الشخص لإطفاء نار الحب القديم بحب جديد، يشغل القلب عن لوعة الماضي، عملاً بالقول المشهور: (وداوني بالتي كانت هي الداء). هذا القول الذي أطلقه أبو نواس ليصبح قولاً مأثوراً.

ولقد كان للأوضاع السياسية التي سادت تونس في ذلك الوقت، أثر كبير في إذكاء روح المقاومة لديه، فقد تركت تلك الأوضاع بصماتها واضحة على أشعاره، فنذر نفسه لمقاومة الاحتلال الفرنسي لبلاده، ذلك الاحتلال الذي منيت به تونس منذ سنة (١٨٨١ م)، فإذا أضفنا ما لاقاه الشاعر من عنت نتيجة ظروفه الاجتماعية، إلى ما لاقاه هو وشعبه من قسوة المحتل، أدركنا سبب هذه الثورة التي تميزت بها أشعاره، تلك الأشعار التي أصبحت أهازيج الثوار في كل مكان، فقد رددتها السهول والهضاب في تونس الخضراء، وغنت بها الطيور، فلقد جاء شعره معبراً عن شدة وطأة الظلم والاحتلال، وسيطرت هذه العاطفة على كل أشعاره، فكانت ناراً تلهب وجدانه، فتحول إلى سيف مسلط على كل محتل دخيل، فكأني به يحمل هموم الإنسانية، ولهذا فقد نذر نفسه لإيقاظ النيام، لينهضوا وليواجه كل منهم مسؤولياته برجولة، هذا ما آمن به الشابي وهذا ما وقف حياته عليه.

وعلى الرغم من أننا نلتقي بحالات من اليأس نتيجة إعراض قومه عن دعوته، ونتيجة السبات العميق الذي سيطر على بني جلدته، إلا أن ذلك كله، لم يكن إلا حالا عارضة، سرعان ما تزول ويعود من جديد يغني ناراً وينشد شراراً، ليحرق المعتدين الظالمين.

مضامين شعره

من خلال النظرة المتقصية لقصائد الديوان، نستطيع القول بأن مضامين شعره، قد دارت حول الدعوة للحرية والحياة، والناس، وفلسفة الحياة، وحديثه عن نفسه وما أصابها من فرح وترح، وما اكتوت به من نار المحبين. فشعره تاريخ لنفسه الصابرة على ما أصابها من رزايا، كما أنه تعبير عن طموحات شعبه، وكل الشعوب المقهورة في الحصول على الحرية والاستقلال. وسوف أتناول هذه المضامين كلاً على حدة مستشهداً بأشعاره:

روح الكفاح:

اشتهر أبو القاسم الشابي كما هو معروف بشعره الوطني، فقد كان هذا الشعر هو جواز المرور لدى الإنسانية التي أتيح لها سماع أشعاره، فأي إنسان من أي لون أو أي جنس، لا يملك إلا أن يقدر تلك الروح الوطنية التي تنتشر في ثنايا أشعاره، تلك الأشعار التي تصلح لأن تغنى على قيثارة أي شعب من الشعوب المقهورة، وهذه ميزة للشابي، جعلته في مصاف العظماء الذين دعوا للحرية الإنسانية، ورفع الظلم عن بني البشر، ولقد جاء شعره مرصعاً بالحكمة فأنشده الصغار قبل الكبار.

ولو احتكمنا إلى المعايير التي يقاس بها الشعر من حيث الصدق الفني، لوجدنا الشابي صادقاً في شعره، فشعره دليل على ما يعانيه من حرقة على هذا الوطن الممزق، وعلى ألمه الشديد لما يعانيه كل مظلوم، ونحن

نلمس قوة في التعبير ودقة في التصوير، وهو في ذلك كله يخاطب العقل والمنطق والخيال والوجدان.

لم يقصر الشابي شعره على الوطن وقضاياه، ولا على الإنسان ومعاناته في هذه الحياة، ولكنه قاله في الغزل والحب والوصف في حين اشتهر بشعره الوطني، وشعر الطبيعة، ولم يعرف عنه قط، أنّه قال شعراً في أغراض التكسب أو التزلف أو الهجاء، وحتى الرثاء فلا تعرف له إلا قصيدة واحدة قالها في رثاء والده.

إنَّ شعر الشابي صورة عن واقع أمره ودخيلة نفسه، فجاء يحمل أمانيه وتطلعاته نحو غد تملؤه شمس الحرية، ذلك أنَّ الحرية هي الشيء المقدس الذي يسعى وراءه دائماً، وحيث أنها لا تتحقق بمعزل عن الصراع بين الحق والباطل، فقد تنازعه الشيء وضده، وظهر هذا في شعره.

ونحن نلتقي معه في قصيدة (تونس الجميلة) حيث يبكي الحرية بدموع غزار فيقول على وزن البحر الخفيف: (فاعلاتن مستفعلن فاعلاتن):

كـلـمـا قـام فـي الـبـلاد خـطـيـب
مـوقظ شـعـبـه يـريـد صـلاحـه
أخـمـدوا صـوتـه الإلـهـي بـالـعـسـف
أمـاتـوا صـداحـه ونـواحـه
كـلـمـا قـام فـي الـبـلاد خـطـيـب
مـوقظ شـعـبـه يـريـد صـلاحـه
ألـبـسـوا روحـه قـمـيص اضـطـهـاد
فـاتـك شـائـك يـرد جـمـاحـه

فالمحتل لا يريد لهذا الشعب أن يصحو من غفوته، ولهذا فإنه يقظ متنبه لكل ما من شأنه أنْ يوقظ النيام، فهو لن يسمح لأي كان أنْ ينبه الشعب لحاله المؤلمة، ولذا، فإنه لا يعطي الفرصة لهذا الخطيب كي يتغنى بأمجاد شعبه، ولا ليبكي مما يعانيه هذا الشعب.

ولا يكتفي المحتلون بذلك، بل إنهم يسعون جاهدين لاجتثاث ما في روحه الوثابة من طموح، ليعود قانعاً بما هو فيه، ولا يفكر في تبديل حاله، إنهم لا يودون سماع صوت الشعب لا في فرح ولا في ترح، ذلك أنَّ أصوات الحزن، لا تقل عن أصوات الفرح في إيقاظ النفوس ودفعها من أجل النضال، بل إنها في الواقع أقوى منها، فالحزن والأسى من شأنهما أنْ يفجرا طاقة خفية في الإنسان من أجل الانتقام.

ولهذا فلن يسمح المحتل الغاشم لأصوات الحزن في الظهور، ولا بد من قهرها في النفوس.

ويجب ألا يُفهم من هذا أنَّ الشابي قد توقف عند بكاء الحرية، بل إن بكاءه قد جاء مرافقاً للدعوة الثورية، التي تطالب باجتثاث جذور الأجانب من الأرض فها هو يقول على وزن الرمل (فاعلاتن فاعلاتن فاعلاتن).

كل شعب قد طغت فيه الدما
دون أن يثأر للحق الجلي
خلّه للموت يطويه فما
حظه غير الفناء الأنكل

ومن ناحية ثانية، فقد دعا إلى ضرورة تحقيق أسباب النصر، كالقوة الذاتية والمنعة الوطنية والإقبال على العلم، لأن الجهل أساس كل ضعف، بل إنه ذهب لأكثر من ذلك، فاعتبر الضعف قبراً يدفن فيه المرء إمكانات هائلة، لو أنه فجرها، لصنع المعجزات، وهذا القبر إنما هو من صنع الإنسان، ونتيجة لما ينتابه من حالات اليأس والخوف، وفي هذا المعنى نجده يقول على وزن البحر البسيط (مستفعلن فاعلن مستفعلن فاعلن).

ضعف العزيمة لحد في سكينته
تقضي الحياة بناه اليأس والوجل
وفي العزيمة قوات مسخرة
يخر دون مداها الشامخ الجبل

علاوة على ذلك، فإنه يشبه الظلم الذي يلف الشعوب بالليل الساكن،

بينما أصوات الأحرار المطالبين بالحرية، تشبه صوت الرعد في هدأة الليل، فمن قصيدة أنشودة الرعد يقول على وزن مجزوء الرمل (فاعلاتن فاعلاتن):

فـي سـكـون الـليـل لـمـا
عـانـق الـكـون الـخـشـوع
واخـتـفـى صـوت الأمـانـي
خـلف آفـاق الـهـجـوع
رتـل الـرعـد نـشـيـداً
رددتـه الـكـائـنـات
مـثـل صـوت الـحـق
صـاح بـأعـمـاق الـحـيـاة

ثم يقول:

أتـرى أنـشـودة الـرعـد أنـيـن وحـنـيـن
رنـمـتـهـا بـخـشـوع مهجـة الـكـون الحـزيـن
أم هـي الـقـسـوة تـسـعـى بـاعـتسـافٍ واصـطـخـاب

على أنه يجب أن يفهم بأن الشابي قد غنى للحياة لا لحرية الإنسان فقط، فقد غنى كذلك للحب والكآبة، كما غنى للطبيعة، وهو في غنائه يصدر عن ثورة عارمة في نفسه، حملتها أشعاره من بعده، وبذلك استكمل أداء رسالته حتى بعد رحيله عن هذه الدنيا، فما زالت لأشعاره قيمة كبيرة في نفوس المظلومين، وما زال لها مفعول السحر في حفز الهمم.

ولقد آمن الشابي بقدرة الشعوب على التخلص من قيودها، إذا عزمت أمرها، وأعدت لكل شيء عُدّته، ففي قصيدته إلى طغاة العالم، نجده يثبت إيمانه بقدرة الشعب على التخلص من مآسيه، والانتقام من ظالميه، وهو في أثناء هذه المحاولة، يصوّر الظلم والمظلومين، فيأتي بالمعاني الخرائد. يقول على وزن البحر المتقارب (فعولن فعولن فعولن فعولن).

ألا أيـهـا الـظالـم الـمـسـتـبـد
حـبـيـب الـظلام عـدو الـحـيـاه

سخرت بأناة شعب ضعيف
وكفك مخضوبة من دماه
ورحتَ تشوه سحر الوجود
وتبذر شوك الأسى في رباه

وبعد هذا الكشف الواضح لظلم المحتل، نجده يتوجه إليه بالخطاب الذي فيه تهديد له، وإشعال لنور الأمل في نفوس المظلومين فيقول:

رويدك لا يخدعنك الربيع
وصفو الفضاء وضوء الصباح
ففي الأفق الرحب هول الظلام
وقصف الرعود وعصف الرياح
حذار فتحت الرماد اللهيب
ومن يبذر الشوك يجن الجراح

إنه يحذر المحتل من مغبة أعماله، وينصحه بألا ينخدع بحالة الانتعاش والإشراق التي يمر بها، فما هذه إلا فترة وتنقضي ـ والفترات في عمر الشعوب لا تحسب ـ فإلى جانب شروق الشمس وظهور الربيع، يوجد الظلام المخيف، والرياح العاتية، وكأني به قد تذكر قول الشاعر، حين أراد أن يحذر بني أمية من زوال سلطانهم حيث يقول على وزن البحر الوافر (مفاعلتن مفاعلتن فعولن).

أرى تحت الرماد وميض نار
ويوشك أن يكون له ضرامُ

وكما حارب الشابي في أشعاره الظلم والطغيان، فقد حارب اللا أخلاقيات بصوت فريد في عصره، أشبه ما يكون بصوت البلبل الحر الطليق، فها هو يناجي عصفوراً ويقارن بين غنائه لبني قومه، وبين غناء العصفور للطبيعة، فالعصفور حر طليق، ينتقل بين الربى والخمائل، حيث الربيع الساحر بأزهاره ومنظره الجميل. فمن قصيدة بعنوان (مناجاة عصفور) يقول على وزن البحر الخفيف (فاعلاتن مستفعلن فاعلاتن).

يـا أيـهـا الـطيـر الـمـغـرد هـا هـنـا
ثـمـلاً بـغـبـطة قـلبـه الـمـسـرور
مـتـنـقـلاً بـيـن الـخـمـائـل تـالـيـاً
وحـي الـربـيـع الـسـاحـر الـمـسـحـور
غـرد فـفـي تـلـك الـسـهـول زنـابـق
تـرنـو إلـيـك بـنـاظـر مـنـظـور

ثم يتحدث عن نفسه فيقول:

ماذا أود من المدينة وهي غارقة بموار الدم المهدور
ماذا أود من المدينة وهي لا ترثي لصوت تفجع الموتور
ماذا أود من المدينة وهي لا تحنو لغير الظالم الشرير
ماذا أود من المدينة وهي مرتاد لكل دعارة وفجور

لقد عاف شاعرنا تلك السمات البارزة في حياة المدينة، وهو في هذا يعبر عن ضجره من تفشي القسوة والظلم واللا أخلاقيات في المجتمع، وكتعبير عن رفضه لهذه الأمراض الاجتماعية، فإنه سيهجر مجتمعها، حتى لا تقع عينه على ما لا يسر البال، أو ما لا يرضي ضمير الإنسان الحر، فإن من أشد الآلام إيلاماً تلك التي تصدر بسبب ظلم الإنسان للإنسان، فكيف حين يكون الظالم والمظلوم أبناء مجتمع واحد؟ فظلم ذوي القربى أشد مضاضة، وأكثر إيلاماً، لأن ذلك مخالف لنواميس الطبيعة، والتي تقضي بأن يتعايش البشر في تفاهم، دون أنْ يكون غالب ومغلوب وقاهر ومقهور، فالحرية هبة الطبيعة للإنسان، وحين يُصر عليها الإنسان، فإنما يتمسك بحقه الطبيعي، فأنى لمخلوق أن يلغي إرادة الله في حرية خلقه؟ وهل معنى ذلك أنَّ هذه المنحة تستلب مقابل النور الذي تمده به الطبيعة؟ وكيف تمده بنور ظاهري، وتسلبه النور الحقيقي؟ وكيف يتساوى الإنسان مع بقية المخلوقات والله قد ميزه عنها؟.

إنَّ الشابي ليعجب من صمت الإنسان حيال حقوقه الطبيعية، ويطالبه بالثورة ضد من سلبوه تلك الحقوق، وقبل أنْ يُترجم هذه الثورة إلى كلمات

نابضة بالحياة والحركة، يجد نفسه مشحونة بشعور يسد عليه المنافذ، ولا تهدأ نفسه إلا بعد أنْ يُفرغ هذه الشحنة في كلمات تنبض بالحياة، وبدون هذا الشعور، لا يكون للكلمات روح، وهذا ما أخبرنا به هو نفسه، حيث ذكر لنا أنه قبل أنْ ينظم الشعر، فإن شعوراً غامراً يملأ عليه نفسه، فلا تستريح إلا إذا أفرغته شعراً، فالشعور شحنة كامنة لديه، ولا بد كي يستريح من التخلص منها، ولا يكون ذلك إلا في قالب شعري، ولهذا جاءت أشعاره قوية ساخنة، لأنها لا تأتي من فراغ، أو بقصد التسلية إنما بعد عناء، وبعد أن يكون الانفعال مما يكابد قد بلغ مداه. على أنَّ هذه المعاناة حتى تحصل، لا بد لها من إحساس مرهف، يعمل عمل ميزان الحرارة، فينقل كل ما يشعر به إلى دخيلته، حتى تحصل تلك الثورة العارمة، وتترجم إلى إشعار.

لقد رأى الشابي بعين البصير الحاذق، أن أي شعب لا يمكنه النهوض من كبوته، إلا إذا أراد وعمل من أجل تحقيق تلك الإرادة، فـها هو يستنكر الرضوخ للمستبد الظالم أينما كان، في أي زمان عاش. فاستمع إليه يخاطب الإنسان فيقول على وزن البحر المتقارب (فعولن فعولن فعولن فعولن):

فـمـا لـك تـرضـى بـذل الـقـيـود
وتـحـنـي لـمـن كـبـلوك الـجـبـاه
وتـسـكـت فـي الـنـفس صـوت الـحـيـاة
الـقـوي إذا مـا تـغـنـى صـداه
وتـطـبـق أجـفـانـك الـنـيـرات
عَـن الـفـجـر والـفـجـر عـذب ضـيـاه
وتـقـنـع بـالـعـيش بـيـن الـكـهـوف
فـأيـن الـنـشـيـد وأيـن الإبـاه
أتـخـشـى نـشـيـد الـسـمـاء الـجـمـيـل
أتـرهـب نـور الـفـضـا فـي ضـحـاه؟
ألا انـهـض وسـر فـي سـبـيـل الـحـيـاة
فـمـن نـام لـم تـنـتـظـره الـحـيـاه

كلمات كبيرة تصدر عن قلب كبير، كلمات تمثل كل كلمة فيها الكثير

من القيم والمبادىء، فلم يذل الشخص ويسكت عن حقه في الحياة، بل إنه ليَعجب من الشخص يغمض عينيه، حتى لا يرى النور المشرق، ولا يخفى ما في هذا التعبير من كناية عن التقاعس عن نشدان الحرية، وهو في هذا كله يرى أن هذه الحالة التي يصل إليها الإنسان، إنما هي من صنع يده، ولهذا نراه يخاطب الإنسان أينما كان بأفعال دالة على تلك الإرادة، مثل: ترضى، وتحني، وتسكت، وتطبق وتقنع، وتخشى وترهب، وهي كلها أفعال تحدث برضا الشخص نفسه.

لقد أراد الشابي بهذا، أن يبلغ الإنسان رسالة الحياة، وهي أنْ لا ذل ولا استعباد من إنسان لإنسان، وعلى المرء ألا يقبل بالظلم أيا كان مصدره، لأنه بقبوله ذلك، يحكم على صوت الحياة بالفناء، فالحياة هي الحرية، وصوت الحياة هو التصرف بما يتناسب مع هذه الحرية من شهامة وكرامة ورجولة، فأي حكمة أبلغ من هذا القول؟ وهل تُستثار الهمم بأبلغ من هذا؟ وأي نشيد أروع من هذا النشيد؟ وهل يوجد في الكون من لا تطربه هذه الدعوة، أو من لا تثير حميته هذه الكلمات؟.

إنَّ الحياة لا تتوقف عجلتها، فهي لا تنتظر أحدا، وعلى من أراد الحياة. أن يغذ الخطى ليواكب سيرها، لا أن يغمض عينيه عن مشاهدة ما يشين، في حين تملأ الصورة قلبه وتحاصره أينما اتجه، فالعبرة بما نحس لا بما نرى، فقد يرى الشخص منظراً يحس حياله بالبهجة والسرور، ويراه آخر فيحس حياله بالدوار والغثيان، ثم لو حاول كل منهما أنْ يُطبق جفنيه فلا يرى ذلك المنظر، فإنه لن يستطيع، لأنه تَملَّك أحاسيسه، وسد عليه منافذ الخلاص.

إنَّ الدعوة التي نلحظها بوضوح من خلال أشعار الشابي، تتجاوب مع آمال كل نفس، ومع طموحها وتطلعاتها، فهو لا يريد للإنسان أن يرضى بالأمر الواقع، ويعتبر هذا قناعة منه، فنفس الإنسان طَموحَة، ولها من الأمنيات التي تتمنى تحقيقها ما هو كثير، ولكن هذا لا يكفي، بل لا بد من ممارسة الحياة على طبيعتها، وحسبما تتطلب منا، حتى نصل إلى تحقيق

شيء مما نريد، ذلك أن ما نريد ليس له حدود، فحياة الإنسان أمانٍ متجددة. . .

وقبل أنْ أختتم الحديث عن روح الكفاح في شعره، أرى أنّه لا بد من كلمة أخيرة تكون مسك الختام في هذا الموضوع، فالشابي الذي عايشناه في الأشعار السابقة مندفعاً في دعوته لمناهضة الظلم حينا، ويائساً من صحوة قومه حيناً آخر، كان لديه إيمان قوي بقدرة الشعب على تحقيق أهدافه، إذا اتخذ لكل شيء عدته، وأما ما لمسناه من شك في قدرة هذا الشعب على الخلاص، فلم يكن إلا من قبيل خلق الحافز والدافع من أجل النهوض، ولهذا فنحن نجده دائماً يُتبع حديثه عن الليل بالنور، وعن اليأس بالأمل، فلا بد لليل أن ينجلي، ولا بد للقيد أنْ ينكسر، ونحن نجده يعبر عن ذلك بصراحة ووضوح حيث يقول على وزن البحر الخفيف (فاعلاتن مستفعلن فاعلاتن):

ضيع الدهر مجد شعبي ولكن
ستردّ الحياة يوماً وشاحه
إنَّ ذا عصر ظلمة غير أني
من وراء الظلام شمت صباحه

فالفجر آتٍ لا محالة، وهذا التأكيد نابع من إيمانه بقوة شعبه، وبقدرته على الانتفاضة يوماً ما، ولكن هذا الأمل لن يتحقق بالتمني فلا بدّ من الأخذ بالأسباب والمسببات.

الحياة والناس

إنَّ أكثر ما أرق الشابي وآلمه، إنما هي حوادث الأيام، فلقد قست عليه الحياة كثيراً، حتى أفقدته لذة الاستمتاع بها، فلم تكن حياته إلا معاناة متصلة، فنجده في مطلع شبابه، يصدم بموت الحبيبة، ثم لا يلبث أن يفجع بموت والده، وتؤول إليه مسؤولية العناية بالأسرة، ثم يصاب بمرض تضخم القلب، فحياته مترعة بالمآسي، ولم يشعر يوماً بالصفاء حتى في اللحظات التي كان يخلو بها إلى نفسه في محراب الطبيعة الخلاب، فلم تكن صور المآسي تفارقه أبداً، وزاد الأمور بلة ذلك الشعور بالمرارة الذي سببه إعراض بني قومه عن دعوته للحرية والخلاص، وقذفهم له، واتهامه بالإلحاد نتيجة أفكاره التقدمية التي جعلت منه ابناً للعصور التالية، لا للعصر الذي يعيشه، فقد سبق بأفكاره كل المصلحين الذين جاؤوا من بعده، ونتيجة لهذا فقد آثر الشابي العزلة، لا هرباً من مشاركة الناس همومهم، ولكنه لما يئس من شعبه هرب إلى الطبيعة يبثها أشجانه وأحزانه، دون أنْ يبعده ذلك عن مشاركة الناس همومهم، حتى أنَّه ليعجب من إنسان لا يلقي بالاً لما يحمل الناس من هموم، فمن قصيدة يا رفيقي نجده يقول على وزن البحر الخفيف (فاعلاتن مستفعلن فاعلاتن).

يا رفيقي أما تفكرت في الناس وما يحملون من آلام
فلقد حز في فؤادي ما يلقون من صولة الأسى الظلاّم
فإذا سرني من الفجر نور، ساءني ما يسر قلب الظلام
كم بقلب الظلام من أنَّةٍ تهفو بغصات صبية أيتام

فهو هنا يعجب من الإنسان الذي لا يهمه ما يلاقيه أخوه الإنسان من ألم، فكيف حين يكون المتألمون أطفالاً أيتاماً، فقدوا القلب الرؤوم؟ فاستقصاء معاني الحرمان، ظاهر في صوره الفنية هذه، وهذا ما يسبب له توتراً نفسياً مستمراً، وقد يكون لحالة اليتم التي أُحاقت به، أثر كبير في خلق هذا الشعور لديه، فنحن نجد سحابة الألم تعلو نفسه، فهو يبكي من الحياة للحياة، حيث لا يراها إلا من خلال عيون المحرومين والمظلومين، وهو يعجب من هؤلاء، لم لا يرفعون أصواتهم لتشق عنان السماء، فتصم آذان الظالمين المتجبرين؟ إنها الدعوة الصريحة إلى الثورة ضد كل ما يشدّ الحياة إلى الوراء، ونحن نجده يتابع دعوته هذه فيقول على وزن بحر الخفيف (فاعلاتن مستفعلن فاعلاتن).

عجباً للنفوس وهي بواك
عجباً للقلوب وهي دوامي
كيف تشجو وفي محاجرها الدمع
وتلهو ما بين سوء المرامي
يا رفيقي لقد ضللت طريقي
وتخطت محجتي أقدامي
خذ بكفّي فإنني تائه أعمى
كثير الضلال والأوهام
وانفخ الناي فالحياة ظلام
ما لمرتاده من الهول حام
فانفخ الناي إنه هبة الأملاك
للمستعيذ بالإلهام
واغذذ السير فالنهار بعيد
وسبيل الحياة جم الظلام

إنه يستغرب كيف يطيب لنفوس تقطر قلوبها دماً أن تجد بهجة ومتعة، فهل يستطيع الإنسان أن يوفق بين هذه وتلك؟ لهذا فقد حار في أمره، وعبر عن هذه الحيرة بقوله: ـ إنني تائه أعمى، فهو يشعر بظلام الحياة من ظلمها،

فيطلب من محدثه أنْ ينفخ الناي، الذي طالما أطرب في ليالي السمر، بما يوحيه في نفس السامع من أنغام حالمة، فلعل أنغامه تزيل ما في النفوس من ظلام، أو على الأقل، قد تعلو فوق فحيح الأفاعي، وأصوات الألم الصادرة عن المظلومين.

وقد يرى بعضهم أنَّ سيطرة هذه الأفكار على روح الشابي وأحاسيسه، قد قادته إلى التشاؤم، ويستدلون على ذلك من أشعاره، ويظنون أنه لم يعد يرى في الوجود شيئاً جميلاً، بدليل أنه يرى أن لا خلاص من شرور هذا الكون إلا بالموت ولكني أرى أن أشعاره هذه، ما هي إلا دعوة صريحة من أجل الاستبسال في الثورة ضد الظلم، فكأني به يريد أن يقول للناس:

إنْ فزتم بحريتكم وحياتكم الكريمة فبها ونعمت، وإلا فإن واجهتم مصيركم المحتوم، فإن في ذلك الراحة الأبدية، وهذا ما يدل عليه قوله على وزن المتقارب (فعولن فعولن فعولن فعولن):

إلى الموت إنْ حاصرتك الخطوب ... وسدت عليك سبيل السلام
ففي عالم الموت تنضو الحياة ... رداء الأسى وقناع الظلام

فبعد الموت، لا يعود الإنسان بحاجة إلى التأسي والترحم، فالشابي هنا يدعو إلى مجابهة الشدائد، حتى ولو أدّت تلك المجابهة إلى الموت، وهذا يساير تماماً ما ذهب إليه في رسالته للحياة، والتي كرّس لها كل جهده، فما نلمسه في الأبيات لا يعدو أن يكون دعوة في ثوب جديد من أجل النضال، أو كما قيل (أطلب الموت توهب لك الحياة).

فقد أحبَّ الشابي الحياة بكل ما فيها من طبيعة جذابة ساحرة، وحب يربط بين الناس، وحرية وكرامة تحفظان للبشر قيمهم، وقد قرن الحياة بهذه المفاهيم، فإذا انتهى وجودها لسبب من الأسباب، فقد تعطل نظام الحياة، وانتهى مبرر من مبررات استمرارها، فالحياة في نظره خليط من هذا وذاك، بهذا المعنى فهم الحياة، ولهذا تمسك بها، لأن تمسكه بها هو تمسك

بالحرية والكرامة وكل القيم والفضائل، وأما هذه الروح التي تسري في أشعاره، فإنني أفسرها بشيء من الضجر وقلة الصبر حيال ما يريد إصلاحه، وما يريده لشعبه من العزة والكرامة، وفي تقديري أنَّ مبعث هذا الضجر، هو ما لاقاه الشابي منذ طفولته من صدمات وأزمات، أو قلْ إنها انعكاس للصراع اللامتناهي بين الحياة والموت، وهما طريقان لا يخرج البشر عنهما، ففي رأيه أن الناس شخصان:

يائس ومستبشر، أي متقاعس وعامل، فها هو يقول من قصيدة (غرفة من اليم)، وعلى وزن البحر البسيط: (مستفعلن فاعلن مستفعلن فاعلن):

والناس شخصان ذا يسعى به قدم ... من القنوط وذا يسعى به الأمل
هذا إلى الموت والأجداث ساخرة ... وذا إلى المجد والدنيا له خول

فاليائس حين يموت، فإن القبور لن تحتفي به، بل ستسخر منه، وهذا كناية عن هبوط منزلته، بعكس المستبشر المناضل من أجل حريته واستقلاله، فلن تنقطع صلته بالحياة، حتى بعد موته، وسوف تخلده الأمجاد التي حققها، ويبقى يذكر بها أبدا.

وقد يكون سبب هذه النزعة التي تطفو على سطح نفسه أحياناً، ما تَحمَّلَه من مسؤوليات، وما لاقاه من ويلات، ولهذا نجده يتمنى لو كان خلوا من مسؤولياته، ليتمكن من العيش كشاعر لا يتسع الوجود لأحلامه وأمَانيه، ويتخذ من الغاب عرينا يكثر الإقامة فيه، فيمتع ناظريه بجمال الطبيعة، فالطبيعة هي الملجأ، ومنها أخذ رموزه الشعرية، ومن خلالها فسر الإنسان وظروفه. فمن قصيدة قيود الأحلام يقول على وزن البحر الكامل (متفاعلن متفاعلن متفاعلن):

وأود أن أحيا بفكرة شاعر ... فأرى الوجود يضيق عن أحلامي
في الغاب في الجبل البعيد عن الورى ... حيث الطبيعة والجمال السامي
فأعيش في غابي حياة كلها ... للفن للأحلام للإلهام
لكنني لا أستطيع فإن لي ... أُمّاً يصد حنانها أوهامي

وصغـار إخـوان يـرون سـلامهم في الكـائنـات معلقـاً بسـلامي
فـأنـا المكبـل في سـلاسـل حيـة ضَحَّيْتُ من رأفي بهـا أحـلامي

فهو يتمنى أن يكون في مقدوره هجر المدينة والعيش وحيداً في الغابات والجبال، حيث لا يرى ما يؤلمه من شقاء شعبه، ولكن ما يمنعه أمر هو بالنسبة له كالقيود، فهو لا يستطيع أن يبتعد عن أمه وعن إخوانه، ونحن نجد هذه الأمنية تتردد كثيراً في أشعاره، فيصف حياة الطبيعة بالعيشة الهانئة السعيدة، وما ذلك إلا نتيجة ما كان يشعر به من غربة روحية وسط جموع لا تريد أن تفهمه، أو قل إنها روح المذهب الرومانتيكي الذي تأثر به، فمن قصيدة أحلام شاعر يقول على وزن البحر الخفيف (فـاعلاتن مستفعلن فاعلاتن):

ليت لي أن أعيش في هذه الدنيا سـعيـداً بـوحـدتـي وانـفـرادي
أصرف العمر في الجبال وفي الغابات بـيـن الـصـنـوبـر الـمـيـاد
أرقب المـوت والحيـاة وأصـغي لـحـديـث الأزال والآبـاد
لا أُعنّي نفسي بـأحـزان شعـبي فهـو حي يعيش عيش الجمـاد
وبحسبي من الأسى مـا بـنفـسي من طـريف مسـتحـدث وتـلاد

فـلا يخفى أن هـذه الـروح التي تسـري في أشعـاره، هي روح رومانتيكية، وهذه الروح تدفعها تطلعاتها إلى تحقيق القيم المطلقة، وإلى نشدان تلك القيم في العالم الآخر بعد الحياة، فهي حين تكد من أجل تحقيق شيء من تلك القيم، ثم لا تجد إلى ذلك سبيلاً، فإن يأسها يدفعها إلى العالم الآخر لتنشدها فيه، وهذا ما جعلنا نذهب إلى أن من أسباب حالة اليأس التي تسيطر على نفسه أحياناً، إنما هو تلك الروح الرومانتكية، فهذا الأمر من الأمور التي قام عليها هذا المذهب.

هذا هو الشابي الرومانتيكي المذهب، يحمل من الهموم ما لا يطاق، همومه وهموم شعبه، وهو كفنان أقدر من غيره على حمل هذه الهموم وتصورها، فهو يرى أن الفنان الصادق يحمل الوجود كله، ونحن نجد هذه

المسحة من اليأس، تستبد به أحياناً فيرى أن لا سعادة إلا في العالم الآخر، ومن بحث عنها في غيره، فإنه قاض حياته في حسرة ولوعة لا تنتهي، فاستمع إليه وهو يخاطب نفسه فيقول على وزن البحر البسيط (مستفعلن فاعلن مستفعلن فاعلن):

ترجو السعادة يا قلبي ولو وجدت   في الكون لم يشتعل حزن ولا ألم
ولا استحالت حياة الناس أجمعها   وزلزلت هامة الأكوان والنـظم
فما السعادة في الدنيا سوى حلم   نـاء تضحي لـه أيـامهـا الأمم

وأكثر من ذلك، فقد كان يرى أنَّ الحياة مسرحية، وما الناس إلا ممثلون، ومن يضحك اليوم، سيبكي غداً، لأن الأيام لا ترحم، فهي في صراع دائم مع البشر، فهذا الإنسان الذي يظهر السعادة والرضا، لو تعمقت في أعماقه، لوجدته مشحوناً بالأسى، فما من مخلوق إلا ويعاني من قسوة الحياة، فها هو يقول على وزن البحر الطويل (فعولن مفاعيلن فعولن مفاعيلن).

ضحكنا على الماضي البعيد وفي غد   ستجعلنا الأيام أضحوكة الآتي
وتلك هي الدنيا رواية ساحر   عظيم غريب الفن مبدع آيات
يمثلها الأحياء في مسرح الأسى   ووسط ضباب الهم تمثيل أموات
وكل يؤدي دوره وهو ضاحك   على الغير مضحوك على دوره الآتي

وكما قلت، يجب ألا يفسر قوله هذا وما سبقه، على أنه هروب من مجابهة الواقع، أو أنه دعوة لليأس والاستكانة وقبول الأمر الواقع، فكل ما سبق لا يخرج عن كونه صورة من صور التعبير الرومانتكية، عمقتها لديه، تلك المسؤوليات الجسام التي ناء بحملها، والمصاعب التي واجهها، وإلاَّ لما وجدناه يؤكد على أهمية مجابهة التحدي بتحد أشدَّ منه، لأن هذا هو طبع الحياة، فهي لا تستكين إلا لمن توفرت لديه إرادة قوية، فرداً كان أم شعباً، وقصيدته (إرادة الحياة) تعج بهذه المعاني، وفي ديوانه غيرها الكثير مما يصلح لأن يكون دستوراً لأدب الكفاح الذي يدعو لمجابهة الصعاب،

فكأني به يريد أن يقول كما قال شوقي:

وما نيل المطالب بالتمني ... ولكن تؤخذ الدنيا غلابا

والشابي أثناء دعوته هذه، فنان بارع يجيد التلوين ويستفيد كثيراً من الطبيعة، فيكثر من الاستشهاد بها، ليدعم أفكاره، ويقربها إلى سامعيه وقارئيه، كل ذلك بأسلوبه المعروف بما فيه من سهولة الألفاظ وجمال المعنى وحسن الالتفات، فمن قصيدة (إرادة الحياة) التي جاءت على وزن البحر المتقارب (فعولن فعولن فعولن فعولن)، يقول:

إذا الشعب يوماً أراد الحياة ... فلا بد أنْ يستجيب القدر
ولا بد لليل أنْ ينجلي ... ولا بد للقيد أنْ ينكسر

أفبعد هذا يستطيع قائل أنْ يقول بأنّ الشابي يدعو إلى اليأس؟ صحيح أنه يئس من إصلاح شعبه، ولكنه يبقى الأستاذ المعلم الذي يرسم معالم الطريق من أجل الخلاص من حالة انعدام الوزن التي يعيشها الإنسان، وحالة فقدان الذات حين تصرعه نوائب الدهر، فحين نطالع قصيدة (فكرة الفنان) نجده بين شعراء الكفاح السياسي وشعراء مقاومة الظلم وقسوة الحياة في القمة، فعلى الرغم مما به من يأس، وما يثقل كاهله من هموم، نراه يدعو إلى المجابهة المستمرة لانتزاع الحق فيقول: (البحر الكامل متفاعلن متفاعلن متفاعلن).

وافتح فؤادك للوجود وخلّه ... لليم للأمواج للديجور
للثلج تنثره الزوابع للأسى ... للهول للآلام للمقدور
واتركه يقتحم العواصف هائماً ... في أفقها المتلبد المقرور
ويخوض أحشاء الوجود مغامراً ... في ليلها المتهيب المحذور
حتى تعانقه الحياة ويرتوي ... من ثغرها المتأجج المسجور

فهذه دعوة صريحة كي يقبل الإنسان على الحياة بقلب مفتوح مطبوع على المغامرة ومجابهة الشدائد، وهو هنا يكاد يوحي لنا بأن الحياة خليط من

ألوان متعددة، وأنماط متفرقة، وهي لا تستكين لمغامر قد ارتوى من مشاربها المتفاوتة في سمتها.

على أننا نقع في ديوانه على روح تدعو إلى تقبل الحياة كما هي، حيث يعتبر سر السعادة يكمن في قبول ما تجود به الحياة، ذلك أنَّ السعادة في معناها الواسع: (تحقيق رغبة الإنسان في الحياة) أمر غير ممكن، وليس معنى هذا أنَّ تناقضاً في أفكاره قد حصل، فعلاوة على تمشي هذه الدعوة مع مبادئه الأدبية التي انطلق منها، فإنه يمكن أخذ ذلك على محمل النضال السلبي، أو ما يسمى بالمقاومة السلبية، التي أساس فلسفتها اللامبالاة، فما دامت الحياة كلها مَكراً وخداعاً وتسلطاً، فعلى الإنسان الحاذق الماهر أنْ يظهر اللامبالاة حيال الأمور التي لا يملك من أمر تغيرها شيئاً، وذلك كي يعطي نفسه فرصة لتغير ما هو ممكن فلو أخذنا قوله:

خذ الحياة كما جاءتك مبتسما في كفها الغار أو في كفها العدم

فإن في هذا القول معنى ضمنياً، يتمشى مع قبول ما قدر للإنسان، ثم إنَّ هذه الفكرة وأعني بها فكرة الرضا بالأمر الواقع، لا تشكل فكرة ذات عمق، فليست لها صفة الشمول التي تحدثنا عنها، بدليل أنَّه لم يفرد لها القصائد كما فعل في الفكرة الأساسية، وأعني بها فكرة مناهضة الظلم ومقارعة الخطوب، فهذه الفكرة قد بلغت من الشمول حداً ملأ ديوانه.

وفي اعتقادي أنه لو أن القدر أمهل الشابي، ومد الله في عمره، لكان صاحب نظرية متكاملة في مقاومة الظلم والاحتلال الأجنبي، فأفكاره في هذا الجانب، تصلح لأن تكون نظرية اجتماعية سياسية، يتمثلها كل مقهور، فتدخل إلى قلبه بريقاً من أمل الخلاص. فمن قصيدته (نشيد الجبار) على وزن البحر الكامل (متفاعلن متفاعلن متفاعلن): يقول:

وأقول للقدر الذي لا ينثني
عن حرب آمالي بكل بلاء
لا يطفىء اللهب المؤجج في دمي
موج الأسى وعواصف الأرزاء

فـاهــدم فــؤادي مــا اسـتــطعــت فــإنــه
سـيـكــون مــثــل الــصــخــرة الـصــمــاء

وقبل الانتقال إلى نقطة أخرى، لا بد من توضيح أنَّ الشابي، لم يكن يُخدع بالمظاهر، لأن المظهر كثيراً ما يخفي المخبر، ويوحي بغير ما يظهر، فليست الطبيعة الجميلة دليلاً على سعادة الناس بها، وليس جمال المرأة دليلاً على صفاء نفسها، فقد تكون كخضراء الدمن التي حذرنا منها الرسول الكريم، وقد عبَّر الشابي عن هذه الفكرة بقوله:

لــســت أدري فــرب زهــر شــذى
قــاتــل رغــم حــســنــه الــمــشــهــود
إنَّ لــيــل الــنــفــوس لــيــل مــربــع
ســرمــديّ الأســى شــنــيــع الــخــلــود
يــرزح الــقــلــب فــيــه بــالألــم الــمــر
ويــشــقــى بــعــيــشــه الــمــنــكــود
وربــيــع الــشــبــاب يــذبــله الــدهــر
ويــمــضــي بــحــســنــه الــمــعــبــود
غــيــر بــاق فــي الــكــون إلا جــمــال
الــروح غــضّــاً عــلــى الــزمــان الأبــيــد

فلسفة الحياة

شغل الشابي نفسه بالبحث عن فكرة شاملة حول الكون والحياة، بحيث تكون مرتكزاً لكل تفسير حول الحياة، وما يتعلق بها من معتقدات كالقضاء والقدر، ونحن نجد هذه المحاولة الجادة، تملك عليه تفكيره، فلم يكن شعره تصويراً لانطباعات منفصلة، بل إنها وحدة الفكر، التي تربط بين المواقف المتباينة، بما يسمى وحدة الإحساس حيال ما يحيط به من أمور، وحيال ما يؤثر في حياة البشر من أحداث، وكان إحساسه إحساساً مرهفاً علاوة على وحدته وشموله، يتأثر بدبيب النمل في الغاب، ولم يكن مرضه ليخفف من انطلاقة إحساسه، بل على العكس من ذلك، فقد أمده بزخم الحياة، لدرجة أنّه جعل الإحساس مقياساً لتقدم الشعوب.

ثم إن الإحساس لديه، يتنافى مع القناعة التي تحول بين الشعوب وبين تحقيق أهدافها.

نظر الشابي إلى الكون نظرة الفيلسوف المتعمق الفاحص، فلم ير فيه إلا كل معذب شقي بوجوده، ولم يجد في الحياة أيا من راحة ترتجى، حتى مظاهر الطبيعة في رأيه، لم تسلم من الشقاء، فلا الجداول ولا الكواكب، ولا الغيوم سلمت من الشقاء، حتى الطيور التي تغرد حرة طليقة في الصباح، يأتي عليها المساء فيسكتها، ويفرض عليها جبروته، وبذلك يحد من حريتها، فيجلب لها الشقاء. ولهذا فقد اعتبر الشابي الوجود كالقبر، لولا ما به من عذارًى وأحلام وحب تجلب السرور المؤقت، فالحياة في حقيقتها ليست إلا

الموت البطيء، وليس الشباب إلا الشيخوخة تسير نحو الموت بخطى مثقلة، والربيع في الدنيا خريف، وما غناء الطيور إلا شكايتها للأيام مما تلاقيه من عنت الحياة، فأناشيدها شهقات، فالوجود في نظره مجلبة للشقاء، وهو في كل كلامه هذا فيلسوف، يسعى إلى فلسفة ذات نظرية شاملة، وبذا استحق أنْ يوصف ما اشتمل عليه شعره فكر، لا خواطر تبرز حيناً وتختفي أحياناً، ومما زاد الأمر عمقاً والأمور تعقيداً لديه، ما لاقاه في حياته من قسوة الأيام، وما سببته من غربة روحية في وطنه وبين قومه، فقبل موت والده، جر عليه تأييده لقوى الإصلاح وحركة تحرير المرأة هجوماً قاده معارضوه، فرموه بالكفر والإلحاد، وكتابه: «الخيال الشعري عند العرب»، يكشف لنا هذا الأمر بوضوح، حيث يتحدث عن الخصومات التي أثارتها دعوته تلك، الأمر الذي جعله ييأس من صلاح هذا الشعب، فينهزم في داخله، ويعبر عن هزيمته تلك بإبراز رغبته في هجر المدينة لو استطاع لذلك سبيلاً، فيذهب إلى الجبال والغاب، حيث يتسنى له العيش بعيداً عن النقاق والخداع والتسلط والظلم، فهو لا يستطيع أن يرى شعبه تمتهن كرامته برضاه، رافضاً الإصغاء لصوت الشاعر المدوي، الذي ينفخه ليل نهار، دون أن تتحرك لديه إرادة الخلاص، وهذا ما يمكن أنْ نعبر عنه بغربة الروح لدى الشابي، وهي أمرّ أنواع العذاب، خاصة حين تقترن باتهامه بشيء هو منه براء، وحين يأتي الاتهام من فئة منحرفة. ونحن نجده، يتحدث عن هذه الغربة صراحة، فمن قصيدة الأشواق التائهة التي جاءت على وزن البحر الخفيف (فاعلاتن مستفعلن فاعلاتن) يقول:

يا صميم الحياة كم أنا في الدنيا غريب، أشقى بغربة نفسي
بين قوم لا يفهمون أناشيد فؤادي، ولا معاني بؤسي
في وجود مكبل بقيود تائه في ظلام شك ونحس
فاحتضنّي وضمّني لك ـ كالماضي ـ فهذا الوجود علة نفسي

* * *

لم أجد في الوجود إلا شقاء، سرمدياً ولذة مضمحلة

وأمانيَّ يغرق الدمع أحلاها، ويفني يم الزمان صداها
وأناشيد يأكل اللهب الدامي مسراتها ويبقي أساها
وورداً تموت في قبضة الأشواك، ما هذه الحياة المملة

* * *

نعم فليس أصعب على الإنسان من أن يشعر أنه غريب في وطنه، فكيف حين يكون هذا الإنسان شاعراً مرهف الإحساس صافي النبع في مجتمع لا سيادة فيه إلا للقوي، وهذا ما يعبر عنه بقوله:

ما إخال النجوم إلا دموعا
ذرفتها محاجر الأعوام
فلقد ضرم الشجون بنوها
فإذا بالشجون سيل طام
وإذا بالحياة في ملعب الدهر
تدوس الرؤوس بالأقدام

ثم إنه يقرر حقيقة لا مناص منها، وهي أن نواميس الحياة قضت بأن يوجد الإنسان، ليتصارع مع أخيه الإنسان ومع الحياة، فالإنسان في صراع دائم مع من حوله، والكل تصرعه الحياة، فليس الوجود في نظره إلا وهم، وقدّر للإنسان أنْ يعيشه في شقاء، وفي هذا المعنى نجده يقول:

وإذا سألت لم الوجود وكله هم مذيب
قالت نواميس السماء قضت ومالك من هروب
آه على قلبي وإنْ شقيت كشقوته قلوب

على أننا نستطيع أن نتلمس بوضوح جوانب فلسفته في الوجود بمطالعة متأنية لبعض قصائده مثل (حديث المقبرة). ففي هذه القصيدة نجد تأملات فلسفية حول الموت والحياة والخلود والكمال، ويُذكر أنه حين أنشأ هذه القصيدة، قام بزيارة لمدافن القرية في ليلة مظلمة من ليالي الصيف، حيث جلس بين القبور الخرساء عن كل حديث إلا عن كلمة هذا الوجود، فجاشت في قلبه خواطر، وتراقصت أمام ناظريه صور، وعجت في صدره ذكريات

كادت الأيام تجعله ينساها، فكان من ذلك كله قصيدة من واحد وسبعين بيتاً. بدأها بطرح التساؤلات عمن مضى من البشر، الذين كانت لهم ابتسامات حلوة وجمال فتان، ذوت وانهد قوامها، وآلت كلها إلى ظلمات القبور، ويستمر في استطراداته، فيتساءل عن مصير هذا الكون بما فيه من سماء ونجوم، وهو في ذلك كله رسام يوشي لوحته بألوان بديعة، فلا ينتقل من صورة لأخرى إلا بعد أن يتقصى وقائعها، معبراً في كل صورة عن ناحية من مناحي الحياة المختلفة.

وفي لحظة، نجده يتساءل عن الحكمة الكامنة وراء عدم خلود تلك الصور، ويعجب من سبب ذلك، مع أن هذا لن يتسبب في فجيعة حبيب بمن يحب، وسيبقى الشباب شباباً والربيع أخضر مزهواً بوروده، ونحن نجده بعد أن حاصرته تلك التساؤلات، وسدت عليه كل منفذ، يحاول أن يجيب بنفسه عنها، ليخرج من هذا المأزق الذي وضع نفسه فيه، فيجيب نفسه بنفسه بقوله:

ولكن هو القدر المستبد، يلذ له نوحنا كالنشيد

وبسبب هذا القول ومثله، فقد رمي بالإلحاد، فهل حقاً خلا قلب الشابي من الإيمان؟ أم أن الحسرة على فراق الوالد والحبيبة، بما فيها من أسىً ولوعة، دفعته لمثل هذا القول؟ أمْ تراها فلسفة وجوده التي آمن بها حقاً؟ لا أعتقد أن الشابي وهو ابن البيئة المسلمة المحافظة، يتنكر لأي مظهر من مظاهر الربانية المقدسة، وأنّ مثل هذا القول، لا يعدو كونه فلسفة تدل على ما في أعماقه من سخط، ثم إنه أحب أن يصور ضعفه أمام قوة الأقدار، فجاء بهذه الصور البديعة، وهذا في حد ذاته دليل على قوة إيمانه، فنحن نجده في القصيدة نفسها، يقول على لسان الفيلسوف:

تبرمت بالعيش خوف الفناء ولو دمت سئمت الخلود
تأمل فإن نظام الحياة نظام دقيق بديع فريد
فما حَبَّبَ العيش إلا الفناء ولا زانه غير خوف اللحود
ولولا شقاء الحياة الأليم لما أدرك الناس معنى السعود

ومن لم يـرعه قـطوب الـديـاجيـر   لم يغتبط بـالصبـاح الـجـديـد

إننا أمام فيلسوف شاعر، يريد أن يتحقق من غاية الوجود، فأثار هذه التساؤلات، ليصل إلى تلك النتيجة التي عبر عنها بعد قناعة بقوله:

تـأمـل فـإن نـظام الـحـيـاة   نـظام دقـيـق بـديـع فـريـد

فهو إذا قد حبك هذه القصة الفلسفية الشعرية، وقصده من ذلك كله أن يتعلم الحكمة، أو قل يعلمها لقراء أشعاره، فها هو يعود بنفسه ليوضح الحكمة الإلّهية من عدم خلود الأشياء، فيعلمنا على لسان هذا الفيلسوف، بأن حلاوة العيش في كونه موشكاً على النهاية، فلولا شعور الإنسان بأنه فانٍ، لما استمرأ العيش، ثم إننا نجده بعد ذلك، يسأل روح الفيلسوف عن دوافع هذا الصراع القوي بين البشر، ما دام أنه ما من لقاء المنايا مناص، ولم كل هذه المظاهر الحياتية الأخرى، من جمال وأغان وظلام وضياء؟ ولماذا نمر مسرعين بواد الزمان ولا نعود؟ يقول:

إذا لـم يـكـن مـن لـقـاء الـمـنـايـا
مـنـاص لـمـن حـلّ هـذا الـوجـود
فـأي غـنـاء لـهـذي الـحـيـاة
وهـذا الـصـراع الـعـنـيـف الـشـديـد
لـمـاذا نـمـر بـوادي الـزمـان
سـراعـا ولـكـنـنـا لا نـعـود
فـنـشـرب مـن كـل نـبـع شـرابـا
ومـنـه الـرفـيـع ومـنـه الـزهـيـد
ومـنـه الـلذيـذ ومـنـه الـكـريـه
ومـنـه الـمـشـيـد ومـنـه الـمـبـيـد
ونـحـمـل عـبـئـا مـن الـذكـريـات
وتـلـك الـعـهـود الـتـي لا تـعـود

وبعد أن يذهب في استطراداته هذه بعيداً، نجد روح الفيلسوف تجيبه،

فيقول:

خلقنا لنبلغ شأو الكمال ونصبح أهلا لمجد الخلود

فلقد خلقنا لنصل إلى ذروة الكمال، حيث يتحقق لنا الخلود، وتكون مكتسباتنا بمثابة أكاليل ورود في العالم الآخر، بعد أن نفارق الدنيا. وتمر في هذه اللحظة أرواح متجهة إلى عالم المجهول، فتنضم إليها روح الفيلسوف، تاركة عالم الشك والكآبة لأبنائه البائسين.

حقيقة إن هذه القصيدة حرية بوقفة أطول، لعمق ما فيها من معان، ولأنها تبرىء ساحة الشابي مما قذف به من الفجور والخروج على تعاليم الدين، فلقد كان بها أستاذاً يسأل ويجيب، يبرز التحدي، ثم يسلبه ما فيه من قوة باطنه، فكأني به هنا يحاول أن يتقمص روح الإمام الغزالي، حين اتخذ الشك أسلوباً للوصول إلى الحقيقة.

وفي قصيدة (شكوى ضائعة) نجد روحاً متمردة على الضعف، وقد أبرز هذا التمرد في صورة فلسفية، ومن ينظر في القصيدة، يخيل إليه لأول وهلة، أنَّ بها تبرماً من القضاء والقدر كذلك، فيرى ما لا يرى الإنسان المؤمن الذي لا يتعدى بتفكيره الغيبيات، بل لا يسمح لفكره من الاقتراب منها.

نجد الشابي يصور القدر بوحش ضار متربص بالنفوس، كما يتربص الأعداء، فما أن تحين اللحظة المناسبة، حتى ينقض عليها، فهو يعتبر القضاء والقدر أمراً حتمياً، وهذا دليل قاطع على إيمانه، ولكنه لما أراد أن يُظهر ضعف الإنسان أمام ما يجري دون أن يستطيع تغيير هذا الواقع، تبرم بطريقة رومانسية. وفي تقديري أنه أراد أن يجمع بين أمرين: التأكيد على إيمانه بالقضاء والقدر، وإظهار نزعة التحدي التي يحاول جاهداً أن يضع شعبه أمامها، لإثارة حميتهم من أجل التعديل والتطور والانطلاقة الوطنية، ومثل هذه التعابير ليست مستغربة الصدور عن شاعر رومانسي، وُهب من الشفافية والحساسية المفرطة الكثير، وبالتالي لا نستغرب أنْ نقف على تعابير لا ترضي من اكتفوا بظاهر اللفظ. مثال ذلك قوله عن القضاء والقدر:

ولـو رأوه لـسـارت كـي تـحـاربـه
مـن الـورى زمـر فـي إثـرهـا زمـر
وثـارت الـجـن والأمـلاك نـاقـمـة
والـبـحـر والـبـر والأفـلاك والـعـصـر
لـكـنـه قـوة تـمـلي إرادتـهـا
سـراً فـنـعـنـو لـهـا قـهـراً ونـأتـمـر

إنه يقبل القضاء والقدر طوعاً لما كتبه الله وقدره له، وكأني به في محاولته هذه أراد أن يرد على المتخاذلين المتكاسلين من أبناء شعبه، الذين خدرتهم سياسة المحتل، فلانوا وضعفوا، وركنوا إلى التسليم بدعوى أنَّ هذا هو قدرهم، فقد أراد أن يفهم هؤلاء الناس ضعفهم، من خلال هذه الثورة العارمة، وهذه الفلسفة التي أصبح بسببها هدفاً لسهام خصومه، لكنها في واقع الحال نـظرات فلسفية تمجـد القوة وتلعن الضعف والمستضعفين. فحديثه كله كنايات، وما سعى إليه الشابي هو المعنى الباطني، فكانت تلك الصور البديعية التي حُملت على الظاهر فاتخذت سبباً للتشكيك في إيمانه، وهكذا أراد المشككون تعميق المعنى الظاهري في نفوس الناس، لشحنهم بالحقد والكراهية ضده، وحتى لا تجد دعوته للقوة آذاناً تسمع، فتضيع في الأفق الفسيح.

نحن نفهم حديثه عن القضاء والقدر على المعنى السابق، وأنه أراد أن يفهم هذا الشعب أن سبيل القوة هو في تحدي الصعاب، ونحن نجد الصورة تكتمل في قصيدته «إرادة الحياة» حيث كنى عن الاستجابة لمطالب القوي حين قال:

إذا الـشـعـب يـومـاً أراد الـحـيـاة
فـلا بـد أنْ يـسـتـجـيـب الـقـدر
ولا بـد لـلـيـل أنْ يـنـجـلي
ولا بـد لـلـقـيـد أنْ يـنـكـسـر

فالقدر يستجيب ويرضى عن الأفراد والشعوب القويـة. وفي هذه

القصيدة نجده يتحدث بلسان الطبيعة، ويمجد القوة إلى التحرك وعدم الخلود إلى السكينة أو الراحة، أو القبول بالأمر الواقع فيقول:

وقالت لي الأرض لما تساءلت
يا أم هل تكرهين البشر؟؟
أبارك في الناس أهل الطموح
ومن يستلذ ركوب الخطر
وألعن من لا يماشي الزمان
ويقنع بالعيش عيش الحفر
هو الكون حي يحب الحياة
ويحتقر الميت مهما كبر

هذه فلسفة الحياة، يقدمها الشاعر إلى الإنسانية أجمع بهذه الأبيات التي بلغت حد الروعة من حيث الموسيقا الشعرية، ومن حيث الألفاظ والمعنى والإيحاءات التي أراد أنْ يوصلها إلى قلب كل إنسان، ليطرد الوحش من داخله، فلقد أراد المحتل بهذا الوحش، أنْ يبني له بيتاً مسلحاً محاطاً بسور عال من الشك في قلب كل مواطن، حتى يستمر في سلب خيراته، واستعباد شعبه. لقد جمع الشابي بين ثنايا شعره الحكمة بعبارات سهلة، وهو في هذا كله فيلسوف وفنان يجيد التلوين، ويعبر عن نفسه أصدق تعبير. وفي تقديري أنَّ هذا ناتج عن إيمان عميق بالله وبقدرة شعبه الدفينة.

وعلى كل حال، فأبو القاسم الشابي أولاً وأخيراً واحد من البشر الذين يتأثرون بما يحيط بهم من أمور، وما يتعرضون له من مواقف، وهو نفسه يحدثنا عن هذه الحالة لدية، فيقول متحدثاً عن شعوره بعد أن كتب قصيدة «إلى الله» التي كتبها بعد موت والده بشهرين تقريباً: «تعرض لقلب الإنسان الذي لا تنتهي أطواره أزمات نفسية ثائرة، يعصف فيها الألم والقنوط بكل حقائق الحياة، وتتزعزع معها كل قواعد الإيمان والحق والجمال، فيشعر المرء كأنما أنبتَّ ما بينه وبين الكائنات من وشائج الرحم أو القربى، فيصبح في هذه الدنيا الغريبة في نفسه، وكأنما الحياة فن من العبث المرعب الممل، الذي لا يجدر به العطف أو البقاء، ومن رحمة الأقدار، أنْ تكون

هذه حال عارضة لا تدوم إلا كما تدوم عاصفة البحر، حيث تكدّر صفاءه فترة، ثم لا يلبث أنْ يرجع إلى زرقته الصافية وألحانه المتزنة، وجماله الساحر الأبدي، وتحت تأثير هذه الحالة النفسية الجامحة، نظمت القصيد التالي، ونفسي سكرى بأحزانها الدامية وآلامها المتشحة باللهيب».

فهذه المقدمة التي كتبها الشاعر بنفسه، تعطينا صورة صادقة عن إنسان عاطفي، يتأثر بكل ما يحيط به، وبما يصيبه من خير وشر، فتضطرب نفسه، وتهدأ تبعاً للعوامل النفسية، ونستطيع أن نلمس ذلك الاضطراب النفسي من خلال دراستنا لهذه القصيدة حيث توضح لنا أثر الصدمة الكبيرة على نفسه الكبيرة، حين فقد الصدر الحنون، وحين انهار خط دفاعه الأول، فأصبح مكشوف الظهر لسهام الحاسدين الماكرين، وإنَّ أثر هذه الصدمة ليظهر بوضوح حين يتحدث عن والده فيقول:

فـإذا مَـنْ أُحـب حـفـنـة تـرب
تـافـه مـن تـرائـب وجـبـاه
وإذا فـتـنـة الـحـيـاة وسـحـر الـكـون
ضـرب مـن الـغـمـام الـزاهـي

فلقد أفقدته الصدمة وعيه، وحولته إلى إنسان رافض ولو لحين لكل المعاني والقيم الروحية، حتى أنه راح إلى إنكار رحمة الله سبحانه وتعالى، وهذا واضح من قوله: ـ

خبـروني هـل لـلورى من إلّـه   راحـم ـ مـثـل زعـمـهـم ـ أواه
يخلق النـاس بـاسمـا ويـواسيهم   ويـرنـو لـهـم بـعـطف إلّـهـي
ويرى في وجوههم روحـه السامي   وآيـات فـنـه الـمـتـنـاهـي
إنني لم أجـده في هـاتـه الـدنيا   فـهـل خلف أفقهـا مـن إلّـه؟

إلا أنّ هذه النزوة الفكرية الطائشة، لا تشكل شيئاً من أفكاره التي تحدثنا عنها، وهو نفسه قدم لهذه القصيدة بالقول السالف الذكر، واعتبره نتيجة الأزمة النفسية التي عاشها في الفترة التي أعقبت موت والده، أمّا

أفكاره التي تعبر عن نفسه والتي قلنا إنَّ لها صفة الشمول، وإنها لهذه الصفة أمكن اعتبارها أساساً لنظرية فكرية في مقاومة الضعف، والانهزام والاتكالية، ونحن نجده في نهاية القصيدة، يتوجه إلى الله سبحانه وتعالى، طالباً الغفران على ما بدر منه أثناء تلك الحالة العارضة، التي حرص لصدقه الفني، أن يسجلها بكل أمانة، ذلك أنّه حرص على أن يكون شعره صورة عن واقعه الحسي والمادي، فهو ما يختلج في صدره من أحاسيس. فها هو يقول نادماً على ما بدر منه:

يا إلَهي قد أنطق الهم قلبي الباكي ... ومـاذا قـد قلتـه بـأشـفـاهـي
يـا إلَهي قـد أنـطق الهم قلبي ... بـالـذي كـان فـاغتفـر يـا إلَهي
قـدم اليـأس والكـآبـة داسـت ... قلبي المتعب الـغـريب الـواهـي
فتشـظى وتـلك بعض شـظايـاه ... فـسـامـحْ قنـوطـه الـمتـنـاهـي
فهـو يا ربِّ معبـد الحق والإيمان ... والـنـور والـنَّـقـاء الإلَـهـي
وهو ناي الجمال والحب والأحلام ... لـكن قـد حَـطَّمَـتْـهُ الـدواهـي

لقد صدق الشابي مع نفسه ومع قارئيه، حين سجل كل تلك الإرهاصات الفكرية التي سيطرت على نفسه البائسة الحزينة في تلك الفترة، وما تلك الأفكار بمستحوذة على الشابي وحده، ولكنها كثيراً ما تسيطر على كل إنسان، حين يمر بمحنة قاسية، كالتي صادفها الشابي، تلك المحنة التي أراد أن يعبر عن شدة وطأتها حين قال:

قـدم اليـأس والكـآبـة داسـت ... قلبي المتعب الـغـريب الـواهـي

* * *

حديثه عن نفسه

كثيراً ما كان الشابي يعود إلى نفسه، يبحث عن ملامح وجوده، ولذا فقد جاء شعره صورة لحاله، فنحن نستطيع الوقوف على بعض صفاته من مطالعتنا لشعره، هذا الشعر الذي لم يقله تَقَرُّباً من أحد، فكما أسلفت في غير هذا الموضع، فإن الشابي لم يلوث لسانه بشعر المديح، فلم يقل الشعر تزلفاً أو تقرباً من أحد، فشعره في صميم الفلسفة، فلسفة الكفاح من أجل الاستقلال، وفلسفة كَدِّ الذهن لكشف أسرار هذا الوجود، وهو في كل ذلك، كان يسعى إلى الوصول إلى الغايات النهائية، أو القيم المطلقة، شأنه في ذلك شأن كل الرومانسيين من أمثاله، وليس الحديث عن النفس بالأمر الهين، خاصة إن كنا نتوخى الوصول إلى الحقيقة من خلال هذا الحديث، فقلما يتحدث إنسان عن نفسه، فَيُعَرِّي أسرارها، ويُبيِّن ما اختفي من حقائقها، وقد كان الشابي من هذه القلة، فعمد إلى شعره، فضمنه أسرار ذاته. فمن يقرأ شعره، يجد نفسه أمام كتاب مفتوح، يحكى مخبوء نفسه، فهو إن أحس بتسلط القدر عليه، عَبَّر عن هذه الحالة، وما ينتابه من شعور بصدق، وهذا ما نجده في حديث المقبرة، وهو إن أحبَّ، عبَّر عما يُحس به حيال هذا الحب، وكذلك إنْ شعر بمرارة اليأس من تجاهل قومه لدعوته، ولهذا أمكن أنْ يقال: إنّ شعره صورة عن نفسه، فالشعر عنده صورة عما يحس به، وما يتصوره أو يتمنى أن يكون، وكلها أحاسيس ومشاعر، ولهذا فقد عبَّر به عن نفسه وصورها أصدق تصوير، وهذا ما يفسر لنا التناقض الذي يبدو على مواقفه من الحياة ومن القدر ومن كل ما يشغل بال الإنسان، ففي

كل موقف له رأي، وكل رأي يسجله بشعره، لأن هذا الرأي هو إحساس آني، وأكثر ما غلبت عليه هذه الروح في مواقفه الروحانية، والمعلوم أنَّ هذه الأمور لا يستطيع إنسان أنْ يطبق المنطق عليها، ولا أن يخضعها لتفسير العقل، فلا يملك إلا أنْ يسلم بها، ولكن الشابي كعادته، لا يُسَلِّم بسهولة، ولهذا ظهر عنده الشك الغزالي، ولم يُخف هذه الحالة، بل سجلها حرصاً على أمانة الفكر والصدق الذاتي.

وها نحن نلتقي به يلعن الحياة لما بها من شقاء وتعاسة فيقول:

لم أجد في الوجود إلا شقاء ... سرمديا ولذة مضمحلة
وأمانيَّ يُغرق الدمع أحلاها ... ويفني يم الزمان صداها
وأناشيد يأكل اللهب الدامي ... مسراتها ويبقي أساها

ثم بعد ذلك، نجده يغني للحب من جديد، وهل يعرف طريق الحب إلا كل من أكرمته الحياة؟ إنه كالعطشان الذي وصل إلى درجة الانهيار، يندب حظه، ولكنه لا يلبث بعد قسط من راحة، أن يبتهج بالحياة من جديد، وهذا ما كان يمر به الشابي، فآناً نجده منشرح الصدر، حين تهب عليه نسمات الحب، وأحياناً نراه كئيباً، وذلك حين يمر بمحنة أو ينتابه شعور بالمرارة، لما يعانيه هو، أو لما يعانيه قومه، ولهذا تتغير الصورة لديه، فكما رأيناه حانقاً يلعن الحياة، فإننا نجده وقد أشرقت روحه بالحب فيقول:

وانتشت روحي الكئيبة بالحب ... وغنت كالبلبل الغريد

وحيث يقول:

آه يا زهرتي الجميلة لو تدرين ... ما جَدَّ في فؤادي الوحيد
في فؤادي الغريب تخلق أكوان ... من السحر ذات حسن فريد
وشموس وضاءة ونجوم ... تنشر النور في فضاء مديد

لقد آمن الشابي بالشعر رسالة، وبنفسه رسولاً، واعتقد بالشعر يصدر عن تجربة نفسية، مترفعاً عن المكاسب والتكسب، فلا مدحاً كاذباً ولا فخراً

ولا هجاء وضيعاً، بل لمحات إنسانية هادية، تشق الطريق من أجل غد مشرق.

إنَّ شعر الشابي صورة صادقة لحياة شاعر مرهف الإحساس عبقري التفكير، فمن يقرأ شعره في سن الرابعة عشرة، تعود به الذاكرة إلى فحول الشعراء العرب، ذلك أنه يجد نفسه أمام شعر قوي العبارة، حسن الديباجة، فصيح بليغ يتجدد مع أطوار حياته النفسية، فقصائده الأُولى التي ضمها الديوان والتي كتبها قبل سنة ١٩٢٩ م لا تختلف عن القصائد التي تلتها، ولا يستطيع أنْ يلمس هذا الاختلاف إلا كل متعمق في المعاني النفسية التي أوردها، فالفكرة الشاملة لديه لم تتبلور إلا في هذه السن، حيث بدأ يخالجه شعور بالعظمة، يشبه إلى حد ما ذلك الشعور الذي سيطر على أبي الطيب المتنبي، فنجده يكتب «قصيدة النبي المجهول»، يتحدث فيها عن رسالته التي آمن بها، والتي سعى جاهداً كي يقنع قومه بها، إلا أنهم كانوا عنه لاهين، ولم يكتفوا بموقفهم السلبي من تلك الدعوة، بل رموه بالسحر والجنون والكفر، وتآمروا على طرده، تماماً كما كان يحدث لأنبياء الله، حين دعوا أقوامهم إلى الإيمان بالله، وترك المعاصي، والشابي في هذه الفترة يصف نفسه بالفيلسوف وبالنبي فيقول:

هكذا قال شاعر فيلسوف
عاش في شعبه الغبي بتعس
جهل الناس روحه وأغانيها
فساموا شعوره سوم بخس
فهو في مذهب الحياة نبي
وهو في شعبه مصاب بمس

لقد أراد الشابي أنْ يرد على خصومه، فكان رده عنيفاً متطرفاً، فيه خيلاء الشباب وقنوط الشيوخ، فشعره صورة نفسه، ونحن نجده في القصائد التي تلي هذه القصيدة أكثر حكمة وأقل اندفاعاً فحركاته النفسية في شعره ما قبل العشرين سريعة، وضرباته خاطفة، ولكنها حركات بطيئة وطويلة، وهي مع بطئها وطولها قوية مؤثرة، إننا نجده في كل قصائده التالية لسنة ١٩٣٠ م

يتحدث بروح الشيخ الفيلسوف الذي غلبت عليه الحكمة، يصوغها بعبارات فلسفية كل يفسرها من الوجهة التي تروقه، ففي قصيدته «إلى الشعب» نجده يعجب من صمت قومه ومن اللامبالاة التي يظهرونها حيال قضايا الساعة التي تستهدف وجودهم، فيقول مخاطباً شعبه، متعجباً من قبولهم لما هم فيه وسكوتهم عنه:

يا إلهي، أما تحس أما تشدو
أما تشتكي أما تتكلم؟
مل نهر الزمان أيامك الموتى
وأنقاض عمرك المتهدم
أنت لا ميت فيبلى ولا حي
فينتشي بل كائن ليس يفهم
أبدا يرمق الفراغ بطرف
جامد لا يرى العوالم مظلم
أيّ سحر دهاك هل أنت مسحور
شقي أو مارد يتهكم

فبعد أن كان شعره تأملات مطعمه بالحكمة، وبالدعوة إلى الانتفاضة الشعبية في وجه المحتل الغاشم في جانب، وتأملات في واقع الحياة وغربته الروحية ومآسيه الشخصية في جانب آخر، بعد ذلك أصبحت قصائده تتميز بشمول الفكرة، وزيادة التخصيص، والعمق في الأفكار الفلسفية، وهذا مؤشر لنضج عقلي، وتبدل نفسي، ففي أبياته التي أوردناها من قصيدته «إلى الشعب» نراه يتعجب من عدم إحساس شعبه بقضاياه المصيرية، وليس فقط من عدم إحساسه، بل كذلك من عدم شكواه، ذلك أن في الشكوى يكمن معنى الإحساس بالألم، ومن لا يشكو ولا يُظهر الإحساس بالألم، فإنه على أقل تقدير شخص مخدر يعيش أشبه بالميت.

ولذا نجده يصف شعبه بأنه بين الموت والحياة، وليس أبلغ من وصف كهذا لحي ميت، فلا هو تظهر عليه آثار الحياة فيتفاعل مع قضاياها، ولا هو

ميت فيبلى، ويفقد الآخرون الأمل فيه. وفي «قصيدة النبي المجهول»، نجده يخاطب شعبه بحرقة ويتهمــه بالطفولة، ولا ينسى أن يأتي بشيء من مظاهر هذه الطفولة كاللعب بالرمل، تماماً كما يفعل الأطفال، ولكنه يبحث له مع ذلك عن مبرر لهذا التصرف، ولهذا الموقف المعادي من دعوة الحرية والانتفاضة التي أطلقها الشاعر، ومبرر ذلك هو عهود الظلام المتلاحقة التي سيطرت على هذا الشعب حتى أفقدته إحساسه، فعاش في شقاء متلهياً بصغائر الأمور، فاستمع إليه يقول مخاطباً شعبه:

أنـت روح غبـيــة تكــره الـنــور	وتقضي الـدهـور في ليـل ملس
أنت لا تدرك الحقائق إن طـافت	حـوالـيـك دون مس وجس
أيهـا الشعب أنت طفـل صغيـر	لاعب بـالتـراب والليـل مغمس
أنت في الكـون قـوة لم تسسهـا	فـكـرة عـبـقـريـة ذات بـأس
أنـت في الـكــون قــوة كبلتهـا	ظلمـات العصـور من أمس أمس
والشقي الشـقي مـن كــان مثـلي	فـي حسـاسـيتي ورقـة نفـسي

إنها حقاً دعوة للحياة على لسان شاب شيخ، فهو على الرغم من مآسيه، يحمل نفس الشباب المتحركة القلقة على مستقبل الأيام، كما يحمل حكمة الشيوخ، بما فيها من تجربة وخبرة اكتسبها عن مقارعة المـآسي ومجابهة الآلام.

المرأة في شعره

من المعلوم أن المرأة تعني الشيء الكثير لشعراء الرومانسية، ولهذا فقد عرف عن الرومانسيين حبهم الشديد للمرأة، فالشاعر الرومانسي، حين ينفصل بشعوره عن العالم الواقعي، فإنه لا يعيش في فراغ، وإنما يعيش بخياله مع أطياف الحب وصوره، ويبني لنفسه عالماً من أغصان الطبيعة وأزهارها يأوي إليه، ولذا فلا عجب أن نجد أشعار الحب وذكر المرأة عند الشابي حتى حين تدلَهِمّ الخطوب، وتشتد المحن، فإننا نرى أنَّ الشابي لا ينسى حبه، بل إنه يشرب من نهره الزاخر فيطفىء اللهيب المشتعل في صدره، فها هو يقول من قصيدة الاعتراف:

ما كنت أحسب بعد موتك يا أبي	ومشاعري عمياء بالأحزان
أني سأظمأ للحياة وأحتسي	من نهرها المتوهج النشوان
وأعود للدنيا بقلب خافق	للحب والأفراح والألحان
ولكل ما في الكون من صور المنى	وغرائب الأهواء والأشجان
حتى تحركت السنون وأقبلت	فتن الحياة بسحرها الفتان
فإذا أنا ما زلت طفلاً مولعاً	بتعقب الأضواء والألوان
وإذا التشاؤم بالحياة ورفضها	ضرب من البهتان والهذيان
إنَّ ابن آدم في قرارة نفسه	عبد الحياة الصادق الإيمان

ونحن نجد الشابي في بداية الأمر، قد وقف إلى جانب قاسم حداد،

الذي عرف في تونس بلقب نصير المرأة، كما عرف في مصر قاسم أمين. وكان قاسم حداد يعتبر إنكار حقوق المرأة احتقاراً للإنسانية، ودلالة على خذلان النفس لصاحبها، ومثل هذا القول، لم يكن ليرضي المفكرين في تونس، ولكن بالرغم من كل التحديات، فقد لاقت هذه الدعوة إلى تحرير المرأة آذاناً صاغية في تونس، فوقف الشابي إلى جانب قاسم حداد، وبدأ ينقد وضع المرأة العربية، فعاد إلى الماضي السحيق، وبين أن المرأة كانت منذ القدم ينظر إليها نظرة خاصة بعيدة عن واقعها كإنسانة، وبيَّن أنَّ هناك من كان يرى في المرأة جسداً يشتهى، ومتعة للعيش الدفيء، فانعدمت النظرة الروحية العميقة لدرجة أننا نكاد لا نجد في أدب العرب أيَّ أثر لهذه الروح، فلم يحاول الشاعر العربي أنْ يحس بما وراء الجسد من روح جميلة ساحرة، تحمل بين جنبيها سعادة الحب ومعنى الأمومة، وهما أقدس ما في الوجود، ولهذا فإن شعر الشابي في المرأة جاء ليعبر عن الجانب الإنساني الرفيع فيها، ويحمل في ثناياه معنى القداسة للمرأة، ومثل هذه الأفكار نجدها في قصيدته: «أيتها الحالمة بين العواصف» حيث يقول:

أنت كالزهرة الجميلة في الغاب ... ولكن ما بين شوك ودود
والرياحين تحسب الحسك الشرير ... والدود من صنوف الورود
فافهمي الناس إنما الناس خلق ... مفسد في الوجود غير رشيد
والسعيد السعيد من عاش كالليل ... غريبا في أهل هذا الوجود
ودعيهم يحيون في ظلمة الإثم ... وعيشي في طهرك المحمود
كالملاك البريء كالوردة البيضاء ... كالموج في الخضم البعيد
كأغاني الطيور كالشفق الساحر ... كالكوكب البعيد السعيد

إلى أنْ يقول:

أنت من ريشة الإلّه فلا تلقي ... بفن السما لجهل العبيد
أنت لم تخلقي ليقربك الناس ... ولكن لتعبدي من بعيد

ثم إننا نجد له قصيدة تحمل صورة جديدة للمرأة، وأعني بها «صورة

الأم»، والقصيدة ملأى بالعاطفة الحارة والصور الحية، ففي قصيدة «قلب الأم» يصور لنا الشابي أقدس عاطفة، ألا وهي عاطفة الأمومة، فيوضح الوفاء وثبات عواطف الأم، ولكننا نلاحظ أنه حتى في حديثه عن الأم، تلازمه الغلالة السوداء، فيتحدث عن موت طفل ونسيان أمره، إلا من قبل قلب الأم، فهذه عاطفة مصدومة حزينة، فها هو يقول:

كُلٌّ نسوك ولم يعودوا يذكرونك في الحياة
والدهر يدفن في ظلام الليل حتى الذكريات
إلا فؤاداً ظل يخفق في الوجود إلى لقاك
ويود لو بذل الحياة إلى المنية وافتداك

وليس هذا جل حديثه عن المرأة، فالشابي قد أحب في مطلع شبابه، وأغلب الظن أنه قد قاسى من هذا الحب، وأنه كان سبباً من أسباب بلائه، فقد ماتت من أحبها وهي في عمر الزهور، فقاسى من الحرمان الشيء الكثير.

وأول قصائد الديوان «الغزال الفاتن» كتبها في ١٩٢٣/٢/٢٣م ثم قصيدة «يا حب» وكتبها في ١٩٢٤/٨/١ م، والظاهر أنَّ تجربته مع الحب قد تجددت بعد موت والده وبعد زواجه، وذلك خلافاً لما ذهب إليه الدكتور عزّ الدين إسماعيل، حيث لم يذكر له إلا تجربة واحدة في هذا الميدان، وعلى ما أعتقد أنه إنما عنى حبه الأول حين يقول في الصفحات (٤٠ ـ ٤١) من الديوان طبع بيروت سنة ١٩٧٢ م: «لقد تضافرت على تشكيل تجربة الشابي على هذا النحو إلى جانب هذه الظروف الاجتماعية عناصر شخصية، تتعلق بحياته وعلاقته بأقرب الناس إليه، بالفتاة التي أغرم بها في مستهل نضجه الوجداني، ثم اخترمها الموت». هذا قول صحيح، فقد دلت أَشعاره على أنه قد مَرَّ بهذا الحب، وبالتحديد في أول صباه، وقبل أن يكمل الرابعة عشرة من عمره، وهذا الحب لم يعمر طويلاً، بسبب موت الحبيبة، وعلى الرغم مما سببه له من ألم في بادىء الأمر، فلم يكن بتلك الدرجة من العمق، حتى يترك جراحاً، والدليل على ذلك أن قصائده التي تلت هذا الحدث، لم

تتحدث كثيراً عنه، فلو استثنينا قصيدة (أيها الحب) التي قالها في سنة ١٩٢٤ م أي في سن الخامسة عشرة، والتي يأتي ترتيبها بعد قصيدة «الغزال الفاتن»، والتي قالها سنة ١٩٢٣ م والأولى قالها بعد موت الحبيبة، والثانية قالها متغزلاً بها، أي قبل موتها، والفارق بين القصيدتين عام فقط، أقول لو استثنينا هذه القصيدة لما وجدنا في قصائده التالية أية شكوى أليمة يسببها له هذا الحب، وإن نظرة سريعة على قصائد الديوان وتواريخها، تؤكد ما ذهبت إليه. وهذه القصائد هي:

١ ـ خله للموت:

قالها سنة ١٩٢٤ م وعلى ما يبدو أن غالبيتها قد سقط، إذ لا يعقل أن تكون مكونة من ثلاثة أبيات كما هو حالها في الديوان، وفي هذه الأبيات الثلاثة، يتحدث عن الشعب الذي لا يثور مطالباً بحقه.

٢ ـ النجوم:

قالها سنة ١٩٢٥ م ولا أستطيع أنْ أصفها بأكثر من كونها تأملات في صفحة الأيام، وبها رائحة السأم والشجن.

وتتوالى قصائده على النحو التالي:
تونس الجميلة سنة ١٩٢٥ م ـ شعري سنة ١٩٢٥ م ـ.
الصيحة سنة ١٩٢٥ م ـ في الظلام ١٩٢٥.

ثم قصيدة جمال الحياة، وقالها سنة ١٩٢٥ م كذلك. وما أُريد قوله، هو أنَّ الألم الذي نلحظه في قصيدة «رثاء فجر» التي قالها سنة ١٩٣١ م، لا نكاد نجد له مثيلاً في قصائده السابقة، الأمر الذي لا يترك مجالاً للشك، في أنَّ الحب الثاني الذي صادف الشابي في حياته، كان ذا أثر كبير على نفسيته، على ضوء ما سنبينه بعد قليل.

وعلى كل، فقد عانى الشابي من الحرمان الشيء الكثير، وبالرغم من ذلك، فإنه يرى أنه لا غنى للإنسان عن الحب، فلولا الحب لما استحقت الحياة ما يُكابد في سبيلها من أهوال، ولولا الحب لما كان للعزة والرخاء والأمل أية جدوى، فها هو يقول:

أيهـا الحب أنت سـر وجـودي وحـيـاتـي وعـزتـي وبـلائـي
وشعـاعي مـا بين ديجـور دهـري وألـيـفـي وقـرتـي ورجـائـي

ونستطيع أنْ نلمس وطأة الحب على من أحب في ظل الحرمان من الحبيب من قوله:

إنَّ للحب على النـاس يدا تـقـصـف الأعـمـار
وله فجر على طـول المدى سـاطـع الأنـوار

فالحب سعادة وشقاء، حنان وتسلط، فإذعـان الحبيب لمن أحب، يدل على ضعفه أمام جبروت الحب، ومع ذلك نجد الشابي يكرر تجربته، فيحب من جديد حبا لا أمل فيه، وقد صادفه هذا الحب في قمة حزنة على والده بعد موته، وهذا واضح من قوله:

مـا كنت أحـسب بـعـد مـوتـك يـا أبي
ومـشـاعـري عـمـيـاء بـالأحـزان
أنـي سـأظـمـأ لـلحـيـاة وأحـتـسـي
مـن نـهـرهـا الـمـتـوهـج الـنـشـوان
وأعـود لـلدنـيـا بـقـلب خـافـق
لـلحـب والأفـراح والألـحـان

هذا جزء مما ورد في قصيدة (الاعتراف)، التي أوردنا بعضاً منها سابقاً وما نستطيع أن نستشفه من أبيات هذه القصيدة من معان، تجعلنا نؤكد ما ذهب إليه الشابي، حين أبان تسلط الحب وجبروته، وأنَّ له يداً تقصف الأعمار، فعلى الرغم مما به من حزن شديد جعله لا يحس بما حوله، إلا أنَّ سطوة الحب كانت أقوى منه، ومن السياج الذي نصبه الحزن حول قلبه، فنراه يحب من جديد، وعلى الرغم من أنه كان قد تزوج قبل وفاة والده. ولقد كان هذا الزواج قيداً يمنعه من الانجراف في بحر الحب العميق، فهو محب مع وقف التنفيذ، أو قل حب بلا أمل، فحبه هذا خلاف لحبه الأول، حيث كان الأمل، أما مع هذا الحب، فلا أمل بذلك لأسباب من بينها زواجه

ومرضه وتربيته المحافظة، والبيئة التونسية التي عاش فيها، ولذا فإننا نكاد نلمس مسحة من اليأس تحف هذا الحب الجديد، فنراه يعزي نفسه بقوله:

ينقضي العمر بين شوق ويأس
والمنى بين لوعة ويأس
هذه سنة الحياة ونفسي
لا تود الرحيق من كأس رجس
لم أجد في الحياة لحناً بديعاً
يستبيني سوى سكينة نفسي
فسئمت الحياة إلا فراراً
تتلاشى به أناشيد نفسي

ثم نجده يحدثنا عن تصميمه على العيش رغم نكبات الحب، ورغم ما به من آلام، ورغم ما يحيكه له الأعداء فيقول:

سأعيش رغم الداء والأعداء
كالنسر فوق القمة الشماء
أرنو إلى الشمس المضيئة هازئا
بالحب والأمطار والأنواء

من كل ما سبق، نستطيع القول بأنّ حب أبي القاسم الشابي كحب غيره من الرومانسيين، حب حزين، لأنه يصطدم دائماً بعقبات تجعل منه حباً يائسا، ونظرة مَلِيَّة إلى أشعاره عن الحب، توضح لنا كيف أنَّ لفظ الحب يأتي لديه مقترناً بالموت كثيراً، والحب المأساوي هذا هو حب الرومانسيين، ففي «غادة الكاميليا» لألكسندر دومانسي، يفشل الحب بسبب معارضة أسرة البطل (أرمان) لزواجه من حبيبته «مرغريت»، بدعوى أنها من وسط سيء السمعة، ولم يغفر لها حبها، ولا توبتها بعد أن تعرفت على (أرمان)، فحب الرومانسيين دائماً ينتهي بالفاجعة، وهكذا كان الأمر عند الشابي، فحبه الأول انتهى بموت الحبيبة، والحب الثاني يأتيه بعد زواجه، وهو في قمة الحزن لفقد والده.

وقد سبب له حبه هذا آلاماً وأحزاناً كثيرة، فمن قصيدة «جدول الحب» يقول:

بالأمس قد كانت حياتي كالسماء الباسمه
واليوم قد أمست كأعماق الكهوف الواجمه
قد كان لي ما بين أحلامي الجميلة جدول
يجري به ماء المحبة طاهراً يتسلسل
تسعى به الأمواج باسمة كأحلام الصبا
بيضاء ناصعة ضحوكا مثل أزهار الربى
مياسة كعرائش الفردوس بين حقوله
تتلو أناشيد المنى في مده وقفوله

ويقول:

هو جدول قد فجرت ينبوعه في مهجتي
أجفان فاتنة أرتنيها الحياة لشقوتي
كعروسة من غانيات الشعر في شفق الحساب
ثم اختفت خلف السماء وراء هاتيك الغيوم
حيث العذارى الخالدات يعشن ما بين النجوم
ثم اختفت أواه طائرة بأجنحة المنون
نحو السماء وها أنا في الأرض تمثال الشجون

ومنها قوله:

إذا أصبح النبع الجميل يسير في وادي الألم
متعثراً بين الصخور يغور في تلك الظلم
حفت به أمواج ذياك الغرام الأفل
فتدفقت فيه الدموع بصوبها المتهاطل
قد حجبته غيوم أحزان الوجود القاتمة
قد أخرسته حرارة القلب التعيس الظالمه
جمدت على شفتيه أنغام الصبابة والهوى

وقضت أغـاني الحب في أعـمـاقـه لمـا هـوى

والقصيدة ملأى بالصور الشعرية المتدفقة، بألوانها المتعددة، وكلها تعبر عن حال الشاعر قبل موت الحبيبة، حيث تعمر السعادة قلبه، ثم تصور حاله بعد موتها، حيث يجتاحه الشقاء ويخيم عليه الظلام.

محاولاته في تجديد بنية القصيدة

من المعلوم أن القصيدة العربية، كانت تشكل أُنموذجـاً لا يمكن تجاوزه، لكل من أراد أن يكتب شعراً، وخلال مسيرتها الطويلة منذ عهد الجاهلية حتى الآن، مرت بمحاولات تجديد، كانت تلمح أحياناً، وتطل من بعيد بحياء لا يسمح لها بالتكرار أحياناً، وأحياناً أُخرى كان اتجاه التغيير يشتد ويجد له أَنصاراً ومدافعين، وهذه المحاولات، كانت متفاوتة، ولكنها كانت بشكل رئيسي تتجه نحو المنهج لا الشكل، فأبو نواس مثلاً، أراد أن يخرج في بداياته عما تعـارف عليه شعراء العربية، فقال:

عاج الشقي على رسم يسائله وعجـت أسأل عن خمارة البلد

فلم يبدأ قصيدته بذكر الأطلال والدمن، وبذا يعد خارجاً عن منهج القصيدة لا شكلها، لأَن موسيقاها وتقسيماتها بقيت كما هي.

وظهرت لدى الأَندلسيين بوادر تجـديد، ظهـرت في ابتكار أُوزان جديده، ولكن هذه المحاولة لم تنتشر، بمعنى أنها لم تطغ على القصيدة الكلاسيكيه، حتى ولم تتساو معها.

وفي العصر الحديث، ظهرت بوادر تجديد، ورغبة في إحداث شيء ما، لدى مدرسة الديوان (العقاد ورفاقه)، ولكن التجديد لديهم أَيضاً، لم يكن ذا أثر فعال في بنية القصيدة فلم يتعـدَّ كونه يكمن في تغيير حرف الروي بعد عدد من أبيات القصيدة، اختلف فيه، فمنهم من قال بتغيير الروي بعد كل سبعة أبيات، ومنهم من كتب قصيدة دون أن يلتزم بحرف روي معين،

ولكن نظام البحور بقي مسيطراً، ولم يتعرضوا له، إلا من زاوية تغيير حرف الروي، واعتمادهم نظام التقسيم أَحياناً، والذي منه قصيدة العقاد، ومنها:

كـاد يمضي العـام يـا حلـو التثني أُو تـولـى
مـا اقتـربنـا منـك إلا بـالتمني لـيس إلا
مـذ عـرفنـاك عـرفنـا كـل حسن وعـــذاب
لهب في القلب فـردوس لعينـي في اقتراب

بالإضافة لذلك، فقد ظهرت معالم التجديد لدى شعراء المهجر، مما نجد له مثالاً في قصيدة (أخي) للشاعر ميخائيل نعيمة، وقصيدة (الطين) للشاعر إيليا أبو ماضي، هذا وقد ظهرت جماعة أبوللـو التي كان رائدها أحمد زكي أبو شادي الذي جاء متأثراً بمطران خليل مطران، وأخيراً وجد الاتجاه الشعري الجديد، الذي عرف باسم (الشعر الحر)، وهذا الشعر، لا يتقيد بعدد التفعيلات في البيت الواحد، ولا يتقيد بقافية معينة.

والسؤال الذي يطرح نفسه في هذا المقام هو: هل كان للشابي نصيب في الإدلاء بدلوه في هذا المجال؟ وما هي بوادر التجديد أو الجديد لديه؟ لقد تأثر الشابي بما حوله وبمن عاصروه، فتأثره بشعراء الأندلس واضح تماماً، كما وجد لدى شعراء المهجر أدباً يخلو مما اعتبره من عيوب الأدب العربي، إذ خلا شعرهم من الموضوعات السطحية، كالمدح والهجـاء، وتوديع مسافر واستقبال قادم، كما خلا من النزعة الخطابية، وحلت فيه روح إنسانية، علاوة على ما يحمله من محاولات جادة للتعبير عن أفكار فلسفية، اعتبرها الشابي ذات قيمةٍ إنسانية، وسوف نلمس آثار هذا التأثر، حين نعرض لمنزلة الشابي بين أقرانه الشعراء.

ومن القصائد التي كان فيها الشابي مجدداً، قصيدة (الكآبة المجهولة) التـي كتبها سنة ١٩٢٦ يقول منها:

أنا كئيب
أنا غريب
كآبتي خالفت نظائرها

غريبة في عوالم الحزن
كآبتي فكرة مغردة
مجهولة من مسامع الزمن

لكنني قد سمعت رنتها
بمهجتي في شبابي الثمل
سمعتها فانصرفت مكتئباً
أشدو بحزني كطائر الجبل

سمعتها أنَّةً يُرَجِّعُها
صوت الليالي ومهجة الأزل
سمعتها صرخة مضعضعة
كجدول في مضايق السبل

وهكذا يمضي إلى آخر القصيدة، وكما هو واضح فإن هذه القصيدة قد خرجت عن شكل القصيدة العربية الكلاسيكية بمواصفاتها التي أشرنا إليها في بداية البحث.

وكتب كذلك قصائد على النظام الذي عَرَّفه البلاغيون (بالتقسيم)، ومن أمثلة ذلك قصيدته (النجوى) والتي منها:

قف قليلاً أيها الساري واصطبر
يا سميري في أويقات الكدر والضجر
واسقني من جدول النور البديع قدحا
علني أنهل هينوم الربيع إن صحا
كم فؤادا إذ تولته الشجون والهموم
بث أسلاكه والدمع هتون ما تروم

فقد سار في هذه القصيدة على النظام التالي:

فاعلاتن/ فاعلاتن/ فاعلن فاعلن

وعلى النهج نفسه سار في قصيدته (في الظلام)، والتي كتبها سنة ١٩٢٥، وفيها يقول:

رفرفت في دجية الليل الحزين زمرة الأحلام
فوق سرب من غمامات الشجون ملؤها الآلام
شخصت لما رأت عين النجوم بعثة العشاق
ورمتها من سهام برجوم تسكب الأحراق
كنت إذ ذاك على ثوب السكون أنثر الأحزان
والهوى يسكب أصداء المنون في فؤاد فان

ومن قصائده التي جاء فيها مجدداً قصيدة (مأتم الحب)، وأنا أورد جزءاً منها هنا لكي يظهر ما لديه من جديد، لم يتطرق إليه مؤرخو الأدب ونقاده، ذلك أن أحداً لم يشر لمحاولات الشابي هذه عند الحديث عن المجددين، يقول:

ليت شعري
أي طير
يسمع الأحزان تبكي // بين أعماق القلوب
ثم لا يهتف في الفجر، برنات النحيب
بخشوع واكتئاب
لست أدري
أي أمر
أخرس العصفور عني // أترى مات الشعور
من جميع الكون، حتى // من حشاشات الطيور
أم بكى خلف السحاب

فلا يخفى أنه استعمل (فاعلاتن) على النحو التالي:

فاعلاتن
فاعلاتن

فـاعـلاتن فـاعـلاتن　　فـاعـلاتن فـاعـلاتن

فـاعـلاتن فـاعـلاتن　　فـاعـلاتن فـاعـلاتن

فـاعـلاتن فـاعـلاتن

وهكذا حتى آخر القصيدة. والذي أريد أن أطرحه هنا هو: لِمَ يتم تجاهل هذه المحاولات التي قام بها الشابي، مع العلم أن تاريخها يرجع إلى زمن مبكر من العصر الحالي؟؟ فقد يشير الباحثون مثلاً إلى دور جماعة الديوان في تجديد بنية القصيدة، ويشيرون إلى بعض أشعارهم الدالة على ذلك، كالتقسيم الذي أوردنا تمثيلاً له في الصفحات السابقة، من قصيدة للعقاد، فلِمَ لم تذكر محاولات الشابي في هذا المجال، مع أن بداياته جاءت مبكرة، وترجع كما يشير ديوانه إلى حوالي سنة **١٩٢٥** م؟؟.

وعلاوة على ما سبق، فقد كتب قصيدته الزنبقة الذاوية سنة **١٩٢٦**، ولم يلتزم فيها بحرف روي كعادة الشعراء الكلاسيكيين، بل التزم الروي بعد كل بيتين، ومن هذه القصيدة يقول:

أزنبقـة السفـح مـالي أراك　　تعـانقـك اللوعـة القـاسيـة
في قلبك الغض صوت اللهيب　　يـرتـل أنشـودة الهـاويـة
أأسمعك الليل ندب القلوب　　أأرشفك الفجر كأس الأسى
أصب عليك شعاع الغروب　　نجيـع الحيـاة ودمـع المسـا

هذه بعض القضايا التي أرى أنه كان فيها مجدداً أو مجارياً للمجددين، أوضحتها هنا وبهذا الشكل، بعد أن لم يتطرق أحد لذكر محاولات هذا الشاعر الفذ، حين التعرض إلى مراحل التجديد التي مرت بها القصيدة العربية.

اللغة ودلالة الألفاظ في شعره

يرى علماء اللغة أنه من المحال أن نصدر أحكاماً على فلسفة كاتب دون تحليل مسبق للغة التي يستخدمها أثناء طرح أفكاره، حيث أمكن إيجاد علاقة بين وسائل التعبير وبين الغرض الذي تعبر عنه، وعليه فإن عملية تقصي الألفاظ التي تشيع في أسلوب الكاتب، تعطينا أحكاماً عامة نستفيد منها عند تقويم عمله الأدبي، وإن خير حكم على العمل الفني، هو ما كان مستنتجاً من داخل إطار نظري عام، يمكن الاعتماد عليه، ويتم من خلاله فحص وإثبات العلاقة بين الشكل والموضوع، وهذا الإطار، يتضمن مستويات ثلاثة، يطلق عليها مستويات التحليل اللغوي وهي:

١ ـ المستوى اللفظي:

ويتطلب دراسة الوحدات اللفظية والمصاحبات اللغوية والمجموعات اللفظية التي تميز هذا العمل الأدبي عن غيره.

٢ ـ دراسة التراكيب النحوية الشائعة في أسلوب الكاتب:

كالتقديم والتأخير في المبتدأ والخبر وأساليب الكلام من خبر وإنشاء واستخدام أي أسلوب منها عند تناول موضوع معين كاستخدام أسلوب الاستفهام عند المرارة والحزن.

٣ ـ تحليل الملامح الصوتية:

مثل تكرار أصوات معينة أو استخدام أنواع معينة من المقاطع الطويلة أو القصيرة، ومثل توزيع المظاهر البديعية كالجناس التام والناقص والسجع والقافية.

المستوى اللفظي: سوف أتحدث هنا عن المصاحبات اللغوية لأهم المواضيع التي اهتم بها الشابي في شعره كالحب والطبيعة والطفولة، وضعف الإرادة واليأس.

تثبت دراسة لغة الشاعر المرتبطة بالحب، أنَّ الشاعر يعاني من فكرة متسلطة، مؤداها شعوره بأن الحب هو سبب المتاعب في هذه الدنيا، فهو مصدر الهموم ومبعث الشقاء، ومع ذلك فإنه سر هذا الوجود، وشعاع يبدد الظلمات، فهو الشدة والرخاء، فحب الإنسان لوطنه هو ما يدفعه للتضحية بنفسه في سبيله، وحبه لبني قومه يدفعه للتضحية والتألم بسبب ما يصيبهم من مكروه، وإلى الفرح والسعادة، حين يصيبون مكسباً، وحبه للحبيب، يجر عليه السهر والعناء والشوق، ولكنه لذيذ في حرقته، عسل في وحدته واغترابه.

ومن المثير للاهتمام حقاً أن مصاحباته اللغوية الدالة على الحب، تشير إلى ما سبق ذكره، فهي تشير إلى البلاء، والهموم والخوف، والدموع والضعف واللوعة، والشقاء واللذة والألم، والرجاء والنشوة والرخاء، والنحيب والاكتئاب.

فحين نتصفح ديوانه، وندقق النظر في قصائده التي تحدث فيها عن الحب، نلاحظ أنّ كلمة الحب، تأتي مصاحبة للشقاء والمناجاة، والدموع والسهر، والبلاء والخوف والرخاء والأمل، فالحب في شعره لونان، وهذا ما تدل عليه مصاحباته اللغوية، ويتضح ذلك تماماً في قوله:

أيها الحب أنت سر بلائي   وهمومي وروعتي وعنائي
ونحولي وأدمعي وعذابي   وسقامي ولوعتي وشقائي
أيها الحب أنت سر وجودي   وحياتي وعزتي وإبائي
وشعاعي ما بين ديجور دهري   وأليفي وقرتي ورجائي

والحب بأي شكل كان، ولأي شيء كان، هو الحب، بمفهومه

السابق، فهو حين يتحدث عن حبه لتونس، يصاب بنفس الأعراض السابقة، فمن قصيدة تونس الجميلة قوله:

أنا يا تونس الجميلة في لج الهوى قد سبحت أي سباحة
شرعتي حبك العميق وإني قد تذوقت مره وقراحه
لست أنصاع للواحي ولو مت وقامت على شبابي المناحة
لا أبالي وإن أريقت دمائي فدماء العُشّاق دوماً مباحه

ولو استعرضنا أبياتاً أخرى من شعره، لتوصلنا إلى النتيجة نفسها، الأمر الذي يجعلنا نجزم، أن تلك المصاحبات اللغوية لكلمة الحب لديه، هي من العمق بحيث أنه لا يستطيع أن يتخلى عنها، فها هو يقول:

إن للحب على الناس يدا تقصف الأعمار
وله فجر على طول المدى ساطع الأنوار

هذا وإن دراسة متأنية لنظرته للحب، ترينا بوضوح، أنه يستخدم وبشكل مكثف المفردات التي تذكرنا دلالاتها بما يلي:

١ ـ بالحزن والأسى:

فمن قصيدة جدول الحب قوله:

هو جدول قد فجرت ينبوعه في مهجتي
أجفان فاتنة أرتنيها الحياة لشقوتي

٢ ـ بالهناء والسعادة:

وكلماته الدالة على ذلك من مثل روح إلهي، الفجر الضحوك، مؤتلق، جدول، غاية آمال الحياة، وهذا يتضح من قوله:

الحب شعلة نور ساحر هبطت من السماء فكانت ساطع الفلق
ومزّقت عن جفون الدهر أغشية وعن وجوه الليالي برقع الفسق
الحب روح إلّهي مجنحة أيامه بضياء الفجر والشفق

يطوف في هذه الدنيا فيجعلها نجماً جميلاً ضحوكاً جد مؤتلق
لولاه ما سمعت في الكون أغنية ولا تآلف في الدنيا بنو أفق
الحب جدول خمر من تذوقه خاض الجحيم ولم يشفق من الحرق
الحب غاية آمال الحياة فما خوفي إذا ضمني قبري وما فرقي

وهكذا نستطيع القول بأن دراسة لغة الشاعر من حيث دلالة الألفاظ لمفهوم الحب لديه، تعطينا فكرة واضحة عما عاناه الشاعر من هذا الحب، وهو يفضي لديه في النهاية إلى الملل والأسى، أما السعادة، فهي في نظره لا تدوم، بل إنها مقدمة للشقاء، فما من غناء إلا سيتبعه حزن، فالأهل الذين تتهلّل وجوههم بشراً بمقدم الوليد، ستمتلىء عيونهم دموعاً عند فقده، وها هو يحدثنا في قصيدته «صفحة من كتاب الدموع» فيقول:

يا للأيام فكم سرَّت قلبا في الناس لتكمده
هي مثل العاهر عاشقها تسقيه الخمر وتطرده
يعطيك اليوم حلاوتها كالشهد ليسلبها غده

فألفاظه المصاحبة للسعادة، تدل على عدم ديمومتها، كما هو واضح من قوله السابق، فمع ذكر الابتسامة نجد الدموع، حتى عندما يرسم صورة تجلب السرور إلى القلب، كتلك الصورة، التي يرسمها لصبي يصيد الفراش بين الزهور، فإنه يرسم لنا صورة أخرى معها، تسير الصورتان جنباً إلى جنب، فيصوره وهو يدوس زهراً ندياً ألقى به في الغدير، وهكذا يمضي في كل ديوانه، فأينما ذكر لفظ السعادة أو ما يوحي بها، وُجدت ألفاظ مصاحبة، توحي بعدم ديمومتها، فهو دائماً يذكر القارىء بأن هذه السعادة التي يراها في الدنيا، إنما هي سعادة مزيفة، لا تلبث أن تزول، والسعادة في نظره، لا تكون إلا بعد أنْ ينتقل الإنسان إلى العالم الآخر.

أما حديثه عن الطبيعة، فقد شغل من ديوانه حيزاً كبيراً، والطبيعة في نظره رسول من الله إلى الله، من خلالها يقف الإنسان على عظمة الخالق، ومن خلال حرص الإنسان على احتوائها، والمحافظة عليها، يكون قد حافظ

على الصلة مع الله جل وعلا، ولقاء الشابي مع الطبيعة، هو بمثابة حوار عميق بين المحدود واللامحدود، بل بين الذات الإنسانية والكون، فنحن كثيراً ما نجده في لحظة راقصة هو والطبيعة بلا حدود، تتكشف أعماقه من داخلها، وتتوج ذاته بما يتعبها ويؤرقها فهو يهوى الطبيعة، لأنها مبعث سعادته، فبين أحضانها يخلع همومه، ولهذا فإن عاطفته نحوها، تتجاوز الإحساس بأنها موطن، فهو حين يحل في محرابها، يحصل على التجاوب النفسي مع جزئياتها. . . مع جداولها وأعشابها وطيورها، مع الليل والنهار والريح والقمر، مع الضياء والظلام، مع كل ما تحتويه الطبيعة من مظاهر، يستشعر من خلالها عظمة الخالق سبحانه.

وفي أحاديثه عن الطبيعة لم يقف عند حد الوصف، بل إنه قد أمدها بعروق تنبض فيها الدماء، فدبت فيها الحياة متدفقة، وأصبح كل ما فيها يُعرب عن نفسه، فالرياح تتأوه، والصبح يغني، والربى تحلم، والصّبا ترقص، والنور يتهادى، والزهر يتمطى، فهو قد أنطق كل ما في الطبيعة لأنها الحياة. وإذا ما أردنا تقصي الألفاظ المصاحبة للطبيعة ومكوناتها، فهي من الكثرة بحيث تحتاج إلى مؤلف خاص، ولكن لا بأس من الإشارة إلى بعض تلك المصاحبات على سبيل المثال لا الحصر، فهو حين يتحدث عن الصبح مثلاً نجده يستخدم كلمة أقبل، ولا يخفى ما تحمله هذه الكلمة من معان فيها الإشراق والفأل الحسن، على النقيض من أدبر، فنحن نقول: أقبل السعد، وأقبل العيد، وأقبل النصر، وإذا ما تحدث عن الربى والزهور، فنجده يستخدم ألفاظاً فيها نعومة ورقة، مثل: تحلم، ترقص، تتهادى، تتمطى، همس السواقي، تشدو، ولا بأس من أن أذكر صورة جميلة وقفت عليها أثناء مطالعتي لديوانه، أثبتها هنا لعلاقتها بالموضوع، فمن قصيدة «من أغاني الرعاة» قوله:

وإذا جئنا إلى الغاب وغطانا الشجر
فاقطفي ما شئت من عشب وزهر وثمر
أرضعته الشمس بالضوء وغذاه القمر
وارتوى من قطرات الطل في وقت السحر

فانظر معي أيها القارىء العزيز، كيف جعل الشمس ترضع بضوئها الأعشاب والأزهار، فحين أراد أن يؤكد على أهمية الضوء لنمو النبات، جاء بهذه الصورة الرائعة التي جعلت من الشمس أمّا، وهي كما يقول الطبيعيون كذلك بالنسبة لبقية الكواكب ـ إنها ولا شك حقيقة علمية ولكنها تخلو من جفاف العلم، بسبب ما أضفته ألفاظه الرقيقة العذبة من روعة التصوير، فغدت لوحة أبدعتها ريشة فنان موهوب.

ومن قصيدة جدول الحب قوله:

بالأمس كانت حياتي كالسماء الباسمه
واليوم قد أمست كأعماق الكهوف الواجمه
قد كان لي ما بين أحلامي الجميلة جدول
يجري به ماء المحبة طاهراً يتسلسل
تسقي به الأمواج باسمة كأحلام الصبا
بيضاء ناصعة ضحوكا مثل أزهار الربى

وفي قصيدة أخرى يجعل الأمواج تبسم، ويجعل للصبا أحلاما، كما يجعل البسمات تطير وتعانق أنغام الغزل، ويجعل الحلم يتمايل، والقلب يبسم فيقول:

وتطير بالبسمات والأنغام أجنحة الصدى
في ذلك الأفق الجميل وذلك النسم الرخا
وهناك حيث تعانق البسمات أنغام الغزل
يتمايل الحلم الجميل كبسمة القلب الثمل

ولو أردنا الاستمرار في تقصي مصاحباته اللغوية التي أوردها مقترنة مع الطبيعة، لطال بنا الحديث، ولكن حسبي ما أوجزت.

أما الألفاظ المصاحبة للطفولة، فإنها تدل على الرقة والصفاء، فلو تتبعنا لفظ الطفولة، لوجدناه يأتي مصاحباً لألفاظ مثل: سلام، ابتسام، حلم، أحلى، الربيع، ريانه، نشوى، غبطة، شعور، حقبة شعرية، غرور، تلهو. وهذا يدل على أن الطفولة في نظره، هي مرحلة السعادة الحقيقة، لأن

الطفل، لم يتعرف على الوجه الآخر للحياة بما فيها من قسوة ومكر وتناحر بين الأقوياء، واستصغار للضعفاء، ولهذا فإنها حقبة حالمة، بكل ما يدخل السرور إلى النفس منها. فها هو يقول:

إن الطفولة حقبة شعرية بشعورها
ودموعها وسرورها وطموحها وغرورها
لم تمش في دنيا الكآبة والتعاسة والعذاب
فترى على أضوائها ما في الحقيقة من عذاب

أما ألفاظه المصاحبة لضعف الإرادة، وقبول الأمر الواقع، فإنها تدور حول الرضى والسكوت، والقناعة والخشية والرهبة.

وهذه أفعال تحدث برضى صاحبها، فكأنه أراد أن يثبت ما ذهب إليه في فلسفته المتعلقة بالقوة، من أن الإنسان هو الذي يصنع قدرهُ، وما دام الأمر كذلك، فكيف لك أيها الإنسان أن تقبل بالخنوع والذل؟ وكيف تحني لمن قيدوك الجباه؟.

أما ألفاظه المصاحبه لليأس، فلا تخرج عن دائرة الموت، الشقاء، الوجل، الضعف، الخوف، الأحداث، الأسى، الظلام، وهذه الألفاظ ومثيلاتها، تدل دلالة قاطعة على الأثر العميق الذي تركه اليأس في نفس شاعرنا، بعد أنْ لم يجد من أبناء شعبه من تجاوب مع صيحته من أجل الحرية.

٢ ـ دراسة التراكيب النحوية:

إن دراسة التراكيب النحوية في شعره، لا تخرج عن تقديم شبه الجملة عن الجملة الأصيلة، أو تأخير ما حقه التقديم، أو الفصل بين الفعل والمفعول به بالجار والمجرور. على أن من الأمور الجديرة بالملاحظة، شيوع أساليب النِّداء في أشعاره، وذلك راجع في الغالب لكون شعره أصلاً موجهاً إلى بني شعبه، فهو في جملته نداء للنيام ليصحوا من مرقدهم، ونداء

لمن لم ينتبهوا إلى جمال الطبيعة، كي يعيشوا ذلك الجمال، حتى أنه حين يتحدث عن الحب، فإنه يتوجه إليه بالخطاب فيقول:

أيها الحب أنت سر بلائي   وهمومي وروعتي وعنائي
ونحولي وأدمعي وعذابي   وسقامي ولوعتي وشقائي
أيها الحب أنت سر وجودي   وحياتي وعزتي وإبائي
وشعاعي ما بين ديجور دهري   وأليفي وقرتي ورجائي

وحيناً نجده يخاطب القمر فيقول:

قف قليلاً أيها الساري القمر   واصطبر
يا سميري في أويقات الكدر   والضجر

وفي حديثه عن تونس الجميلة، يتوجه إليها مخاطباً فيقول:

أنا يا تونس الجميلة في لُجِّ   الهوى قد سبحت أيَّ سباحة
شرعتي حبك العميق وإني   قد تذوقت مره وقراحه

وحين يُحدِّث قومه، فهو يخاطبهم ويقول:

يا قوم عيني شامت   للجهل في الجو نارا
تتلو سحابا ركاما   تتلو قتاما مثارا

من هذا نرى أنه أكثر من استخدام أساليب النداء، لأن شعره في غالبيته مناجاة، وهو كثيراً ما يتحدث بلسان نفسه، فكأنه يؤرخ لها.

٣ ـ تحليل الملامح الصوتية:

إنَّ تحليل الملامح الصوتية لألفاظه الشعرية، توضح لنا استخدامه للمقاطع الطويلة أكثر من استعماله للمقاطع القصيرة، فمن قصيدة الحياة يقول:

إن هذي الحياة قيثارة الله   وأهل الحياة مثل اللحون
نغم يستبي المشاعر كالسحر   وصوت يخل بالتلحين

والليالي مغاور تلحد اللحن وتقضي على الصدى المسكين

ويقول من قصيدة الذكرى:

كـنـا كـزوجي طـائـر فـي دوحـة الـحـب الأمـيـن
نـتـلو أنـاشـيـد الـمـنـى بـيـن الـخـمـائـل والـغـصـون
مـتـغـردين مـع الـبـلابـل فـي الـسـهـول وفي الـحـزون
ملأ الهوى كأس الحياة لنا وشـعـشـهـا الـفـتـون
حتى إذا كدنا نُرَشِّف خمرها غـضـب المنـون
فتخـطف الكـأس الخلوب وحـطم الـجـام الـثـمـين

وكثيراً ما نجد عنده تراكيب تكاد تكون جديدة في استعمالها، ولكنها جميلة في تصويرها مثال ذلك قوله، ضرجها السحر، الجفون تبسم، يشيب قلب الوليد، ليل النفوس، الحياة موت، الشباب شيخوخة، أمواج الزمان، قلب بلبلي، الورد شوك مصفح بالحديد، وقد يطول بنا المطاف لو أردنا تقصي مثل هذه الألفاظ التي يدل استعمالها على عمق الصورة لديه.

ونحن في جولتنا بين أشعاره، قد نقف على بعض الكلمات التي قلما تستعمل، مثال ذلك كلمة (فدم) والتي تعني الجاهل أو الغبي، يقول:

وعقل من الأضواء في رأس نابغ وعقـل من الـظلمـاء يحمله فـدم

ولكن جمال الكناية في قوله: الأضواء والظلماء، ونابغ وفدم، ينسينا وعورة الكلمة. ومثل ذلك كلمة (طرس) التي تعني الصحيفة، يقول:

صـورة للشقـاء دامعـة الـطرف ولـون يـسـود في كـل طـرس

وكثيراً ما نجده يكرر نفسه في المعاني والأخيلة، ونحن لا نجده يلتفت كثيراً إلى اختيار قوافيه وألفاظه، بل إنها تأتي عفوية، فتعبر عن أعماق نفسه أصدق تعبير، فليس الشابي بالشاعر المتكلف أو المتصنع، بل إنه شاعر الفطرة والطبيعة.

وقد أكثر من استخدام الحروف السلسلة العذبة في النطق، وزاوج بينها

في أكثر أبياته كحروف السين والصاد والضاد، ولا يخفى ما لهذا من أثر في الموسيقا الشعرية، وهذا في مثل قوله:

وسرت تشوه سحر الوجود وتبذر شوك الأسى في رباه

وقد أكثر من المقابلة بين الألفاظ مثل: حبيب وعدو، الصباح والظلام، القوة والضعف، الشدة واللين، الفجر والظلام، ابتسام وحزن، هذا بالإضافة إلى الأنواع البديعية الأخرى كالجناس والطباق، ولكنها منتشرة في أشعاره دون تكلف، بل نجدها في موضعها كاللبنة من البناء.

ومن الأمور التي لا بد من الإشارة إليها في هذا المقام، بعض ما وقع فيه الشاعر من عيوب القافية كالتضمين، وهو ألا يستقل البيت بمعناه، ومثال ذلك قوله:

فهو في وحشته الخرساء بين الكائنات
صامت كالقبر إلا من أنين الذكريات

فقد جاء خبر الضمير في البيت الثاني، ومثل هذه القضايا وإن كانت قليلة، فإنه لا بد من الإشارة إليها، عملاً بما تقتضيه أمانة البحث.

فلسفة الشابي ومذهبه الأدبي

تأثر الشابي في شعره بالمذهب الرومانتيكي الذي هبت به رياح الأدب الفرنسي بعد أن سيطر على الأدب في تلك البلاد.

وكان لبيئته المحافظة أثر كبير في خلق هذا الاتجاه في نفسه، فقد حلّت في نفسه الروح المثالية التي كثيراً ما تنشأ في نفوس أولئك الذين يعيشون في وسط متدين، فالمثالي في صراعه مع الواقع، لا يملك أدوات النصر، ولا يطيق الانتكاسة ومن هنا تشيع في نفسه ظلمة، وتسيطر عليه مشاعر الغربة.

وقد كانت هذه المشاعر لدى الشابي أقوى منها لدى غيره، لما اتصف به من مشاعر حساسة، فكآبة الشابي، ترجع في جذورها إلى مثاليته الروحية أولاً وقبل كل شيء، تلك المثالية التي ترى الحق والصدق وغيرهما، من المثل العليا أقدس ما في الوجود، وبدونها يفرغ من محتواه.

ومن المعروف أن الشاعر الرومانتيكي، يستعين بالطبيعة ومناظرها، من أجل جلاء الصور الشعرية، مع مراعاة أوجه الشبه التي تربط بين الصور الطبيعية وجوهر الأفكار والمشاعر التي يريد التعبير عنها، وإن نظرة ولو سريعة على أي من قصائد الديوان، ترينا بوضوح، كيف سيطر هذا المذهب على شعر الشابي، فقد أكثر من التمثل بالطبيعة، فنحن نجده يخاطب الزنبقة كأنها كائن حي، يسمع ويعي، وله قلب يخفق، وآذان يسمع بها، كما يجعل لليل قلباً ينبض، وللنهار لساناً، وللزهر جفناً، وللأسى كفا، ومن أمثلة ذلك قوله:

فلعل قلب الليل أرحم بالقلوب الباكية
ولعل جفن الزهر أحفظ للدموع الجارية

ونراه يرمز إلى الظالم المستبد بالمنون، فالموت يخطف الأعمار ويستحوذ عليها، كذلك الظالم المستبد، يستحوذ على الحريات فيعطلها، ويستعبد البشر، فالتشابه قائم بين الفعلين، ومن جهة ثانية فإن هذا التشابه، يظهر لنا نظرة الشابي الحقيقية للحرية، إذ يجعلها صنو الحياة، وهذا ليس من قبيل الصدفة، فالشابي يقدس الحرية تقديسه للحياة نفسها، فالحرية لديه هي الحياة، ولا يخفى ما في هذا الحديث من روائح رومانتيكية، فكما هو معروف أن الرومانتيكيين يسعون دائماً إلى الغايات المطلقة، فإنْ أحبوا سعوا إلى حب مثالي، وإنْ أرادوا التعبير عن الجمال، جاءوا بعبارات تتحدث عن الجمال المثالي، وقد تكون هذه النظرة باعثاً من بواعث مسحة الحزن التي نحس بها لديهم، فالأماني ورود عذاب لا تتحقق، والسعادة أمر لا يمكن الحصول عليه، يقول الشابي من قصيدة «أراك»:

أراك فتحلو لدي الحياة ... ويملأ نفسي صباح الأمل
وتنمو بصدري ورود عذاب ... وتحنو على قلبي المشتعل
أراك فأخلق خلقاً جديدا ... كأني لم أبل حرب الوجود
ولم أحتمل فيه عبئا ثقيلا ... من الذكريات التي لا تبيد
أراك فتخفق أعصاب قلبي ... وتهتز مثل اهتزاز الوتر
ويُجري عليها الهوى في حنو ... أنامل لُدْناً كرطب الزهر

فانظر إليه كيف جعل الأماني وروداً عذاباً لها قلوب تعطف، فتخفف بعطفها الآلام عن أصحابها، ثم انظر إليه وهو يستخدم تعبيراً مثل: صباح الأمل، فلا شك أن ما يوحيه هذا التعبير في نفس السامع هو شيء عظيم، فكلمة الصباح مجردة معروف ما تعنيه، ومعروف كذلك كيف يكون الجو لطيفاً مع نسمات النهار الأولى، فأشعة الشمس خفيفة لطيفة، ويزيد من سحرها وحلاوتها ما يرافقها من نسيمات عليلة، تبعث النشوة والانبساط في

النفس، فتخفف من متاعبها، وتزيل بعض ما علق بها من صدأ الحياة، وهو حين يستخدم لفظ الصباح مقترناً بكلمة أمل، فهو بذلك يتمشى مع إيحاءات هذه اللفظة ودلالاتها، ومع مرتكزاته الرومانتيكية، فالأمل الذي يبدأ مشرقاً مشعاً كما يبدأ الصباح، يسير نحو نهايته المحتومة، حين يخيم الظلام، ويلف العالم سواد الليل. وهو يريد بهذا التعبير، أن يوحي لنا بأن ما يقصده هو الأمل البكر، الذي لم يخالطه شك، ولم تواجهه عقبات، لأنه ما زال في أول الدرب، وما دام للأمل صباح، فإن له كذلك مساء يكون حين يخبو الأمل، وتصبح فرص تحقيقه ضعيفة، فكأني به يريد أنْ يصل إلى النتيجة التي وصل إليها من قبله شاعر الأندلس أبو البقاء الرندي حين قال:

لكــل شيء إذا مــا تم نقصــان فــلا يغـر بــطيب العيش إنسـان

ثم انظر إليه وقد استعاض عن كلمة الأماني بكلمة ورود، وكيف أن التشابه قائم بين المثلين، من حيث أن الورود تنمو بالماء والرعاية، وكذلك الأماني تنمو وتتجدد عندما يرى الحبيب محبوبته.

على أن قصيدة (فلسفة الثعبان المقدس) هي من أكثر قصائد الديوان تعبيراً عن مذهب الشـابي، حيث اتخذ من الثعبـان رمزاً للشـر والظلم والطغيان، في حين اتخذ من الشرّ رمزاً للإنسان المستضعف، فبعد أن يقدم لنا وصفاً رائعاً لما كان ينعم به الإنسان الذي رمز إليه باسم الشاعر الشحرور، نجد أن الثعبان الذي يعيش في الجبال، قد عزّ عليه أن يرى الشاعر على تلك الحـال من الغبطة والسـرور، فينقض عليه غيـر عـابىء بصيحـات المسكين، الذي لم يقترف ذنباً، إلا أنه يتغزل بالكائنات، ويغرد في الغاب فكأن هذا الشر المتمثل بالثعبان، قد رأى أنَّ سعادة الضعفاء جريمة يعاقبون عليها أشد العقاب، ونحن نجده في هذه القصيدة، يدير حواراً في غاية الروعة بين الخير والشر، آناً يتحدث بلسان الشاعر، وآناً آخرى يتحدث بلسان الثعبان، وأخيراً ينهي هذه القصيدة الرائعة بحكمة كانت بمثابة العقد، يقول:

وكذاك تتخذ المظالم منطقاً عـذبا لتخفي سـوءة الآراب

ومما يقوله في بداية هذه القصيدة:

كان الربيع الحي روحاً حالما ... غض الشباب معطر الجلباب
يمشي على الدنيا بفكرة شاعر ... ويطوفها في مركب خلاب
والأفق يملأهُ الحنان كأنه ... قلب الوجود المنتج الوهاب
والكون من طهر الحياة كأنما ... هو معبد والغاب كالمحراب
والشاعر الشحرور يرقص منشداً ... للشمس فوق الورد والأعشاب

ثم نراه يتحدث على لسان الشاعر الشحرور فيقول:

وتدفق المسكين يصرخ ثائراً ... ماذا جنيت أنا فحق عقابي
لا شيء إلا أنني متغزل ... بالكائنات مغرد في غابي
وسعادة الضعفاء جرم ما له ... عند القوى سوى أشد عقابي
ألقى من الدنيا حنانا ظاهرا ... وأبثها نجوى المحب الصابي
أبعد هذا في الوجود جريمة ... أين العدالة يا رفاق شبابي
لا أين، فالشرع المقدس ها هنا ... رأي القوي وفكرة الغلاب

إلى أن يقول:

ولتشهد الدنيا التي غنيتها ... حلم الشباب وروعة الإعجاب
(أن السلام حقيقة مكذوبة ... والعدل فلسفة اللهيب الخابي)
لا عدل إلا إن تعادلت القوى ... وتصادم الإرهاب بالإرهاب

حكمة ما بعدها حكمة، حكمة قرأناها جميعاً، ولكن لم نتعلم منها شيئاً، فهذا القول أصدق ما يكون على ما نحن فيه من تيه وغفلة، نبحث عن السلام المبني على التنازلات، ولا يخفي ما يحمله هذا السلام من امتهان للإنسان العربي، ذلك أنه سلام بين القوي والضعيف، أي بين الذئب والحمل، فكيف لهذا السلام أنْ يدوم، والذئب حين يجوع يكفر بكل القيم، ولا يصده إلا من هو أقوى منه، بحيث يفرض عليه احترام العهود والمواثيق،

هذه الحكمة قالها سنة ١٩٣٤، أي منذ ما يقرب من خمسين عاما، ومع هذا ما زلنا نتجاهل ما تعنيه لنا وهو شيء كثير.

يقول على لسان الثعبان:

إني إلّه طالما عبد الورى ظلي وخافوا لعنتي وعقابي
وتقدموا لي بالضحايا منهم فرحين شأن العابد الأواب
وسعادة النفس التقية أنها يوما تكون ضحية الأرباب
فتصير في روح الألوهة بضعة قدسيه خلصت من الأوشاب
أفلا يسرك أن تكون ضحيتي فتحل في لحمي وفي أعصابي

فقد شبه الظلم كما هو واضح بإلّه، وليس بخاف علينا جميعاً مقدار تلك الرهبة التي تملأ قلوبنا من عصيان الإلّه، وهذا القول له وجهان، فهو من ناحية، يصور لنا ضعف الإنسان أمام ظلم أخيه الإنسان، ومن ناحية ثانية فهو تحد للإنسان كي يقاوم الظلم والطغيان، فنحن عندما نريد أن نحث شخصاً ما على مجابهة آخر، فإننا نقوم باستثارة هذا الشخص من خلال تضخيم الخصم، فتثور حميته، ويرغي ويزيد ويتوعد، فهو حين يتحدث عن الظلم والطغيان بهذه اللهجة، ويصورهما بهذه الصورة، صورة إلّه يقدم له الأتباع القرابين، ليضمنوا سكوته ورضاه، إنما يدفع الناس لتثور لديهم الحمية، فيخرجوا عن صمتهم، ويتحدوا هذا الظالم المتجبر، وهذا أسلوب جيد من أساليب إثارة الحمية من أجل التمرد، ليكون خطوة على طريق الحرية، وهذا الموقف الذي يصورهُ الشابي، يتكرر اليوم وغداً، وفي كل وقت، فهو يشتمل معاني عاشها الشاعر في عصره، ونعيشها نحن كل يوم من حياتنا، ولسوف تعيشها الأجيال القادمة، فهذا الضعيف يعاقب لأنه ضعيف، والضعيف لا يحق له أن ينعم بالسعادة، لأنها من حق الأقوياء فقط، وإذا ما حاول الضعيف أن يسري عن نفسه، حتى بدون أن يقلق القويّ، فإن له العقاب جزاء تلك المحاولة، لأنه بذلك يأتي شيئاً ليس من حقه. على أنّ روعة التعبير تكمن في تلك الحكم التي ساقها بأسلوبه الزاهد هذا، فلا حق

يحصل عليه الإنسان من أخيه الإنسان ما لم تكن لطالب الحق قوة ترهب غيره، فيقرّ له بحقه.

إنَّ القيمة الشعرية للشابي، لا تكمن في اتباعه هذا المذهب الرومانتيكي السالف الذكر، ولا في محاولاته التجديدية التي تعرضنا لها في الصفحات السابقة، وإنما فيما احتواه شعره من صور رائعة، وألوان شائعة، ودعوات صريحة لمناصرة المظلومين، فقد انبثق هذا الشعر عن حوادث وخطوب، ارتبطت بأوضاع الوطن والمجتمع والإنسانية جمعاء، وعدا ذلك انبثقت مما لاقاه الشاعر في حياته من المواجع الروحية والجسمية الكثيرة.

فكان على الرغم من تحامله على نفسه ودائه، يلمح من خلال الغيب مصيره فيرثي لذاته ويشعر بدنو الفراق لدنياه التي أحبها على ما فيها من حلو ومر، وسعادة وشقاء، وكان يرى خلال الظلام الكثيف الذي يكتنف هذا الوطن، تلك المحن والشدائد التي تنتظر أبناءه، فكان ذلك مدعاة له كي يدعوهم من مرقدهم، ولكن لا مجيب، مما كان له في نفسه أسوأ الأثر، مما ترك بصماته على شعره بشكل واضح فجاءت مناصرته للمظلومين والمقهورين، صرخة مدوية، فكان في شعره صوت كل مظلوم أينما كان، فالشابي داعية تحرر وطني، بل إنه صوت الإنسان ينادي بتحرر الإنسان من ظلم أخيه الإنسان، لقد كان معلماً للشعوب التي تسعى بخطى حثيثة من أجل حريتها واستقلالها، فنبه في مواطن كثيرة من شعره، إلى أن تحقيق هذا المطلب، لا يتم بالدعوات، ولا برفع الشعارات، بل لا بد من أن تسانده القوة التي يرهبها الخصم، فالقوة سبب من أسباب النصر، وطرق تحقيق هذه القوة كثيرة، من بينها: التخلص من الجهل، فالجهل يؤدي إلى الهزيمة، حتى مع وجود القوة البشرية والمادية، ولم يفت الشابي أن يحذر من مغبة الجهل وخطورته فقال:

يا قوم عيني شامت   للجهل في الجو نارا
تتلو سحابا ركاما   يتلو قتاما مثارا
يثير في الأرض ريحا   يهيج فيها غبارا

تلفي الشديد صريعا تبقي الأديب حمارا
منها الفضاء ظلام والناس منها سكارى

فأية صورة أوضح من هذه الصورة التي يفند فيها الآثار المترتبة على الجهل الذي يعتبر سبب بلاء الأفراد والشعوب؟.

بهذه المعاني وأمثالها ظل الشابي نغماً على شفاه المظلومين والمعذبين، ولكنه نغم لم يكتمل، فلو أمد الله في عمره، لجاء بالعجب العجاب، ولسوف يظل شعره مدوياً في آفاق الأمل لدى كل مظلوم ومقهور فرداً كان أم شعباً.

بين الشابي وأقرانه الشعراء

كان الشابي شاعراً مطبوعاً طلع في تاريخ الأدب العربي نجماً، لم يلبث أن غاب وشيكاً، تفجرت شاعريته في سن مبكرة، إذ استقامت له أوزان الشعر ودانت له قوافيه، وهو لا يزال فتى يافعاً، وهذه حالة قلما تحدث إلا للعباقرة أمثاله، وقد حفلت حياته القصيرة بتجارب كثيرة، أثَّرت في طبعه، وقد استجاب لهذا الطبع ولتلك التجارب، فعبر عن ذلك أجمل تعبير وأصدقه.

عاش في زمنه نخبة من الشعراء على امتداد الوطن العربي، استجابوا لحاجة الأمة في إذكاء العواطف الوطنية، من أجل مناهضة المحتلين، والحث على التمسك بأسباب القوة، والتسلح بالعلم لقهر الجهل، هذا من حيث المضمون، أما من حيث الشكل فقد كان بعضهم يدعو إلى تغيير بنية القصيدة العربية، متأثرين بذلك بثقافتهم الغربية.

وكان بعضهم يدعو إلى إحياء التراث القديم، ولا تخفى تلك المعركة الحادة التي قامت بين دعاة التجديد والتغريب، وبين دعاة الإصلاح والتمسك بالتراث وبعثه، تلك المعركة التي فجرها كتاب طه حسين «في الأدب الجاهلي» حيث دعا إلى قطع كل صلة بالقديم، فتصدى له نخبة من الأدباء والمفكرين، ولا حاجة إلى الخوض في تفاصيل تلك المعركة الأدبية، ويكفي أن نشير إلى أنَّ طبيعة هذا الصراع، كانت بين فريقين:

أحدهما يرى في الأدب الغربي صورة ناضجة للأدب، وأن على الأدباء العرب أن يحذوا حذو أدباء الغرب.

والآخر يرى أن في هذا مؤامرة على التراث العربي، وأنَّ الخير كل الخير، يكمن في بعث التراث القديم في ثوب جديد.

عاش في زمن الشابي من الشعراء عدد كبير، نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر: إبراهيم طوقان وعبد الرحيم محمود في فلسطين، وعرار في شرقي الأردن، وفوزي المعلوف وميخائيل نعيمة وجبران خليل جبران في المهجر، وأديب مظهر وأبو شبكة في لبنان، وإبراهيم ناجي وعلي محمود طه في مصر، وفهد العسكر في الكويت، وقد خصصت هؤلاء بالذكر لأنني وجدت بينهم جميعا سمات التشابه، فقد تفرغوا لأنفسهم وغنوا على أوتارها وأحسوا الحياة إحساساً عميقا، فلم ينظموا الشعر إلا منفعلين متأثرين، فكان شعرهم صوراً لحياتهم، وصدى للمجتمعات التي عاشوها. فأين يقف الشابي بين هؤلاء الشعراء؟.

لقد كان للحالة التي يعيشها الوطن العربي في هذه الفترة، أثر كبير على نفسية هؤلاء الشعراء جميعاً، فقد تركت هذه المرحلة بصماتها واضحة كل الوضوح على آثارهم جميعاً، وإن تفاوتوا فيما بينهم في تبنيهم للقضايا القومية والإقليمية والإنسانية، وهذا ما سنلمسه في هذا البحث.

لقد كان الشابي تونسي الأصل، مغربي الأرض، عربيٌّ الروح والثقافة، إنسانيٌّ النزعة والدعوة، ولا يوجد بين المثقفين العرب من يجهل صرخته العاتية في وجه المحتلين، وفي إيقاظ المقهورين من أجل المطالبة بحرياتهم، ولهذا فقد تغنى بقصائدة كل المظلومين، وهذا ليس بالأمر المستهجن، ذلك أن الشيء من معدنه لا يستغرب، إذ ان الشابي، كان ثورة في ذاته، فقد فجّر احتلال تونس، وما عاناه شعبه من سطوة المحتل، كل ما في نفسه من ثورة وحقد على كل ظالم ومحتل وطاغ، فجاء شعره يفيض بالنقمة ويدعو إلى الثورة، وعاش أقرانه الشعراء العرب الظروف نفسها، فقد ابتلى الوطن العربي كله بالاحتلال، فتحكمت فيه أيد غريبة، لا يربطها بالأرض ولا بالشعب أي رباط، إلا رباط السيد والمسود، فأحس شعراؤنا بوطأة المحتل على تفاوت بينهم في الدرجة والنوع، وإنَّ نظرة فاحصة

لإنتاجهم، ترينا مدى تلك الثورة التي دعوا إليها، إلا أن الشابي يبقى أكثر التصاقاً بشاعر فلسطين إبراهيم طوقان، وبشاعر الأردن عرار، وبشاعر الكويت فهد العسكر، فلقد عاش كل منهم لقضايا وطنه، متبرما من محترفي السياسة في بلده، داعياً إلى الأخذ بأسباب القوة من أجل الخلاص، وكان الشابي يعود بعد التشاؤم إلى التفاؤل، فيحدوه الأمل بالحرية إذا تحققت شروطها، وكان يضع الإرادة في مقدمة هذه الشروط، فالتصميم على النجاح أهم بكثير من النجاح، إذ ان النجاح قد يأتي بمحض الصدفة، وهذا لا يمكن اعتباره نجاحاً، لأنه يفقد مبررات استمراره، فسيتلوه إخفاق متكرر، أما الإخفاق الذي يحصل رغم التصميم وإعداد العدة، فإنه كسحابة صيف سرعان ما يزول، ويحل محله النجاح، فالعزم والتصميم والإعداد وصلابة الإرادة أهم من النجاح ذاته.

وإذا ما خصصنا الشكل الشعري بالاهتمام، فإننا نجد التشابه قائماً أكثر بين الشابي وإبراهيم طوقان، فكلاهما قد ساير التطور في الثقافة، ولهما محاولات في تجديد الموضوعات وتنسيق البناء، كانت أقرب لصنع التواشيح، ومحاكاة الآخرين من خلال المذهب الرومانتيكي الذي ينبع من صميم الشابي، فمن المعلوم أنَّ الشابي قد تأثر بهذا المذهب، فكان مثل طوقان في شعوره وطبعه الإبداعي، ورقة شمائله، وقد كان طوقان في وطنياته ألصق بالمجتمع، ومع ذلك فإن نقاط تلاقيهما كثيرة.

لقد أطلق الشابي جناحيه، وحلق بعيداً بعيداً، فكان ما لديه من آمال يرجو تحقيقها، أكثر من أن تحصر، ولقد تغنى بالشعور التونسي، وتعمق في تصوراته، حتى ذهبت تلمع مع الطبيعة والتأمل والمناجاة.

أما صياغته الفنية فقد أخذت من القديم جزالة اللفظ، وجاءت متجددة في صورها، وجاء التحرر من الطابع القديم واضحاً جلياً، شأنه في ذلك شأن كل الشعراء الرومانسيين، فنحن نعلم أن الرومانسية، قامت على أنقاض الكلاسيكية، وليست بخافية تلك المعارك الأدبية التي قادها الرومانسيون ضد الكلاسيكيين.

تأثر الشابي بشعر المجددين في العالم العربي، وفي المهجر، ففي مصر، كانت جماعة أبوللو التي كانت تدير المعركة من خلال مجلتها الأدبية، وفي المهجر كان نخبة من الشعراء العرب، الذين تأثروا بآداب الغرب، فكانت دعواتهم التجديدية وصيحاتهم الفكرية صدى لتلك الثقافة، على أنَّ الشابي قد تميز عن أقرانه بوجدانه، فكان ذا وجدان ينفعل ويتأثر بالبواعث النفسية، وتلك البواعث والهزات الاجتماعية والقومية، فيقول شعره تحت هذا التأثير وهذا ما تسبب في تكرار اللفظ لديه، وفي بعض الهنات في أوزانه الشعرية فنحن نلمس بوضوح أثر الانفعالات النفسية في كثير من قصائده، وكان أحياناً يغرق في خياله، فيختلط بالواقع حتى لا يعود قادراً على التمييز بينهما، ولم يكن الشابي من الشعراء الذين يعنون بتنقيح أشعارهم، فجاءت قصائد ديوانه على الحالة الأولى من صياغتها، معبرة عن نفسه أجمل تعبير وأصدقه، وعلى الرغم من كل ذلك، فإن الشابي يأتي على قمة الشعراء الذين وقفوا جل أشعارهم على التنديد بالظلم ومحاربة التسلط، وكان يرسل الحواس فتعطي الأصوات ألواناً، والروائح أنغاماً. ولكم جَسَّمَ الخيال صوراً رائعة، مستعيناً بالطبيعة تجلو كل غموض، وتلون كل صورة بألوان جميلة، فتجلو ما بها من غموض، فوجوه التشابه بين صور الطبيعة والأفكار كثيرة، يعرفها الإنسان العادي، ولكنه لا يدركها ولا يفطن إليها، لهذا فقد استطاع الشابي تجسيم المشكلات الإنسانية من خلال صوره المستمدة من الطبيعة، مانحاً إياها طولاً وعمقاً يبرزانها بشكل تصبح معه معروفة، بل وواضحة كل الوضوح.

علاوة على ما سبق فإننا نستطيع القول بأن أقرانه الشعراء، لم تكن لديهم فكرة متسلطة ينطلقون منها، في حين نجد لديه هذه الفكرة منبثة في كل أشعاره، فلو طالعنا أشعار علي محمود طه، وإبراهيم ناجي، ومحمود حسن إسماعيل، وغيرهم من الشعراء، فإننا لا نجد نظرية فكرية، أو دعوة لنظرية ينطلقون منها في أشعارهم، كما هو الحال لدى الشابي، حيث نجد لديه الفكرة الشاملة التي تسلطت على نفسه، وسيطرت على تفكيره، فسعى جاهداً لتوصيلها إلى الناس، ولو أن القدر أمهله وأمد الله في عمره، لكان من

الممكن أن تتحول تلك الفكرة الشاملة إلى نظرية فلسفية، يكون هو رائدها في العالم العربي، أما تلك الفكرة الشاملة التي سيطرت عليه، فكانت حرية الإنسان، التي انطلق منها إلى حرية الأوطان، فقد انطلق في ثورته من تلك الفكرة الشاملة التي استبدت به، فنجده يقتصر في شعره على الموضوعات الإنسانية، حيث وجد فيها مجالاً لتأملاته ومشاعره، فلا نجد في شعره أثراً لشعر المدح أو الهجاء، حتى الرثاء لم يتناوله إلا في قصيدة واحدة في رثاء والده، ومن هنا كان اللقاء بينه وبين أدب المهجر، فاستهوى ميوله، وتجاوب مع أحاسيسه، ذلك أن أدب المهجر كما هو معروف، هو أدب إنساني قبل كل شيء، عالج قضايا الإنسان ومشاكله أينما كان، وهذا ما نلمسه في أشعار جبران ونسيب عريضة، وإيليا أبو ماضي وميخائيل نعيمة، فالأدب لديهم نوع من الفلسفة الإنسانية والتأملات العميقة في النفس وفي الطبيعة، فهـذا ميخائيل نعيمة في كتابه «الغربال» يقول:

«إننا في كل ما نفعل وكل ما نقول، وكل ما نكتب إنما نفتش عن أنفسنا، فإن فتشنا عن الله، فلنجد أنفسنا في الجمال، وإن طلبنا الفضيلة، فلا نطلب إلا أنفسنا في الفضيلة، وإن بحثنا عن ميكروب، فلا نبحث إلا عن أنفسنا في الميكروب، وإن اكتشفنا سراً من أسرار الطبيعة، فما نحن إلا مكتشفون سراً من أسرارنا فكل ما يأتيه الإنسان إنما يدور حول محور واحد هو الإنسان وحول هذا المحور تدور آدابه».

رأينا كيف كان الشابي مصدوماً في شعره بالغربة في وطنه، وبين بني قومه، ونحن نجد جبران يتأثر كثيراً من تلك الغربة التي عاشها بعيداً عن وطنه، ورأينا كم تألم الشابي لأن قومه ما سمعوا صراخه، وها نحن ترى كيف كان يتألم جبران لنفس السبب، فها هو يقول «كلانا منفي عن بلاده بعيد عن أهله وأحبابه فخفف عليك جأشك، وكن مثلي صابراً على مضض الأيام والليالي» ثم يقول: «لقد صرخت قبلك في آذانهم فلم أستوقف غير أشباح الدجى» وكما حاول الشابي إظهار فلسفته نحـو الحياة والكـون والقضاء والقدر، فقد كان جبران كذلك، فكتب فلسفة المنطق أو معرفة الذات، ومنها يقول: «عَلَيَّ أن أزيل النقاب عن أسرار نفسي، وأن أمحو الالتباس عن كل

مكان من قلبي، بل عليّ أن أبين معاني كياني المعنوي لكياني الهيولي، وخفايا وجودي الهيولي لوجودي المعنوي».

وتحت عنوان «يا بني أمي»، كتب جبران يقول: «ماذا تريدون مني يا بني أمي؟ أتريدون أن أبني لكم من المواعيد الفارغة قصوراً مزخرفة بالكلام والهياكل مسقوفة بالأحلام، أم تريدون أنْ أهدم ما بناه الكاذبون والجبناء، وأنقض ما رفعه المراؤون والخبثاء؟» ثم يقول بعد ذلك: «لقد كنت أحبكم يا بني أمي وقد أضرّ بي الحب، ولم ينفعكم، واليوم صرت أكرهكم، والكره سيل لا يجرف غير القضبان اليابسة، ولا يهدم سوى المنازل المتداعية، ثم يستطرد قائلاً:

«كنت أشفق على ضعفكم يا بني أمي، والشفقة تكثر الضعفاء، وتنمي عدد المتوانين، ولا تجدي الحياة شيئاً، واليوم أرى ضعفكم، فترتعش نفسي اشمئزازاً، وتنقبض ازدراء». ثم يقول: «هلموا وتأملوا، فقد جعل الخوف شعر رؤوسكم كالرماد، وعرك السهر عيونكم، فأصبحت كالحفر المظلمة، ولمست الجبانة خدودكم، فباتت كالخرق المتجعدة، وقَبَّل الموت شفاهكم، فأمست صفراء كأوراق الخريف، ماذا تطلبون مني يا بني أمي، بل ماذا تطلبون من الحياة، والحياة صارت لا تحسبكم من أبنائها؟» أليست هذه هي الدعوة التي صاح بها الشابي ليوقظ قومه من سباتهم العميق؟... هذا بالإضافة إلى أن الشاعرين قد استمدا من الطبيعة الإلهام، فاتخذ كل منهما الطبيعة رمزاً لبث ما بداخله من حملة على الضعف والضعفاء، وتمجيداً للقوة والأقوياء.

من ناحية ثانية فقد ارتبط الشابي مع جماعة أبوللو ممثلة بمؤسسها الدكتور أحمد أبو شادي، حيث حاول الشابي إصدار ديوانه الشعري من خلال الدكتور أبو شادي، وبدأ بمراجعة قصائده بنيَّةِ طبعه بمصر، وذلك في صيف ١٩٣٤، إلا أنَّ القدر لم يمهله، فلم يكتب له رؤية ديوانه، وقد ذاع وانتشر، بعد أنْ عزفت صحف تونس عن نشر أي شيء من إنتاجه، فقام أبو شادي بنشر بعض منه في مجلة أبوللو التي أسسها ١٩٣٢ م، وكانت هذه بداية معرفة الجماهير العربية خارج تونس لهذا الشاعر الفذ.

هذا ما يعرف عن صلة الشابي بغيره من الأدباء والشعراء خارج تونس، إذ لم يعرف له أيُّ اتصال مباشر بغير جماعة أبوللـو، وكانت فترة زمنية محدودة، لا تعدو العامين، هذا بالإضافة إلى تأثره بما كان يقرأه لشعراء العربية في زمنه، وكما أسلفت في غير هذا الموضع، فقد استجابوا جميعاً لحاجة الأمة في إنعاش الآمال بالتحرر، وفي إذكاء عواطف شعوبهم من أجل النضال السياسي، الذي روحه القوة الوطنية، وأنفاسه العلم قاهر الجهل عدوٍّ الشعوب اللدود، فهذه الروح نجدها عند كل أولئك الشعراء الذين عاصروا الشابي، والذين سبق ذكر بعضهم، ولئن كانت دعوات البعض منهم تتراوح بين الإقليمية والقومية، إلا أن دعوة الشابي كانت إنسانية، حيث غنى لكل الشعوب المقهورة، ولكن صيحاته ترددت في واد عميق وغابت إبان حياته، ولم تجد من يُصيخ لها السمع، إلى أن توفاه الله، وكان أن ازدادت شعلة النضال، فبرز صوته مجلجلاً، وترددت أشعاره على ألسنة الكبار والصغار.

الديوان في الميزان

أول قصيدة حفظها لنا ديوانه هي قصيدة «الغزال الفاتن»، ونحن نلقاه في هذه القصيدة شاباً يافعاً، إذ يرجع تاريخ نظمها إلى ١٩٢٣، أي وهو في سن الرابعة عشرة، وبها يحكي قصة حبه الأول، حيث نمت بذور الحب في قلبه، وأورقت لحاظا نوافثَ، وكانت ثمار هذا كله الشقاء لقلبه، ونحن نقف في هذه القصيدة على لوحات فنية تعج بالأحداث، وهذه ميزة نسجلها للشابي، حيث أنه كثيراً ما ينطق صوره زيادة في التعبير عن إحساسه، ففي أول القصيدة، نراه يرسم صورة للحب، يزرع بذوره في قلبه، كما يفعل الفلاح في حقله، ثم يبدأ برسم ملامح من أحب، وهو في وصفه متقص، يكاد يرسم لوحة فنية لكل جزء من جسد هذا الحبيب، فالعين والجفن والخد والفم والخصر، والشفاه والعنق، كلها كانت موضع وصفه، ومضمون لوحاته في هذه القصيدة.

والقصيدة الثانية هي قصيدة «أيها الحب» وقد نظمها ١٩٢٤، وهي أقرب ما تكون إلى المناجاة وبث الشكوى مما يلاقيه من حبه، وعلى الرغم من ذلك، فإنه سر وجوده، كما أنه سر بلائه، وسلاف الفؤاد وسم النفس، والشدة والرخاء، ثم إنه يخبرنا أنه لم ينل من حبه هذا شيئاً، فكأني به حب من طرف واحد.

بعد هاتين القصيدتين، نجده يتجه وجهة أخرى، فيها من النقمة بسبب تردي أوضاع شعبه الشيء الكثير، فنجده يقول تحت عنوان «خلّه للموت».

كـل قلب خمـل الخسـف ومـا مـلّ مـن ذل الـحـيـاة الأرذل
كـل شعب قد طغت فيـه الـدمـا دون أن يـثـأر لـلحـق الـجـلي
خـله لـلمـوت يـطويـه فـمـا حـظه غيـر الـفـنـاء الأنـكـل

وهذه أيضاً كتبها سنة ١٩٢٤، ولا أعتقد أن هذه الأبيات الثلاثة هي مجموع هذه القصيدة، بل ربما يكون قد ضاع بعضها.

بعد ذلك نلتقي معه في قصيدة (النجوى) التي سار فيها على النهج الذي اصطلح البلاغيون على تسميته (التقسيم)، حيث سار فيها على النسق التالي:

فـاعـلاتن/ فـاعـلاتن/ فـاعلن فاعلن

وأعتقد أنه قد كتب على هذا النسق قبل جماعة الديوان، ويرسخ هذا الاعتقاد، إذا علمنا أنه كتب هذه القصيدة سنة ١٩٢٥، وإذا علمنا كذلك، أن الشابي لم يغادر تونس، وأنا لا أريد أن أقول إنَّ طرفاً قد تأثر بالطرف الأخر، فهذا ليس ثابتاً على الإطلاق، ولكن يجب ألا نغمط الشابي حقه، فنهمل ذكره من بين المجددين أو المحاولين، وهو في قصيدته هذه، قد سار على نهج التقسيم تماماً، فأوجد القافية الداخلية التي جاءت موحدة بعد كل بيتين.

ثم نلتقي في قصيدة (تونس الجميلة) وكتبها كذلك سنة ١٩٢٥، وفي هذه القصيدة، نجد أول شكوى تصدر عنه لصدود قومه عن سماع صوت الحق الذي يناديهم من أجل إصلاحهم، ولا أعتقد أنَّ ذلك الصوت هو صوت الشابي، إنما عنى به صوت المخلصين من أبناء وطنه، الـذين سبقوه بمطالبهم الإصلاحية، ذلك أن الشابي قال هذه القصيدة وهـو في سن السادسة عشرة، أي قبل أن يشتدّ عوده، ومن هذه القصيدة قوله:

كلمـا قـام في البـلاد خـطيب مـوقظ شعبه يـريـد صـلاحـه
ألبسـوا روحـه قميص اضـطهـاد فـاتـك شـائـك يـرد جمـاحـه
أخمـدوا صـوتـه الإلّهي بـالعسف أمـاتـوا صـداحـه ونـواحـه

وتــوخــوا طــرائق العــسف والإر هــاق تــوا ومـا تــوخـوا سمـاحــه
هكذا المخلصون في كـل صوب رشقــات الــردى إليهم متــاحــه

وقد يكون الشابي بهذه القصيدة قد خطا أول خطوة على درب طويل شاق، وهو درب الكفاح السياسي والاجتماعي لخلاص شعبه.

وتتوالى قصائد الديوان فيكتب قبل نهاية سنة ١٩٢٥ القصائد التالية:

شعري، الصيحة، في الظلام، جمال الحياة، من حديث الشيوخ، نظرة في الحياة، الحياة، ونجده في قصيدة «شعري» يتحدث عن تجربته الشعرية، فيوضح لنا أنها تعبير عما في صدره، وهو لا يكتب إلا بعد أن يشتد إحساسه بضرورة الكتابة، وهذا الإحساس لا يراوده إلا بعد أنْ يحتبس في صدره شعور لا يقوى على مغالبته، فلا يستريح إلا بعد أن يعبر عن تلك الحالة بالكلمات، ثم إنه يحدثنا عن أغراض شعره، والتي ليس من بينها المدح أو الرثاء، فمضامين شعره، لا تخرج عن كونها أغراضاً تتعلق بما يهم بلاده، وبما يحث على المعالي، فالشعر إنْ لم يكن كذلك، فإنه أشبه ما يكون بطيف في واد الظلال حسب رأيه، أما بقية القصائد الأخرى، فقد ضمنها ثورته على الجهل المتفشي بين بني قومه، علاوة على محاولة حث قومه على التخلص من عصور الظلام من خلال ما يبديه من آراء تمجد القوة، فالحياة لا تستكين إلا لقوي قادر على مجابهة الأحداث، أما الضعيف فإنه يداس بالأقدام.

وفي سنة ١٩٢٦ نجده يكتب قصائد: أنشودة الرعد، وبها يمجد القوة، وقصيدة «غرفة من يم»، ونجده في مطلعها يذم ضعف العزيمة، ويشيد بقوة العزيمة، ثم يصنف الناس فئتين: فئة يائسة، وأخرى آمله، والأولى مصيرها الموت، حيث تسخر منها القبور، والأخرى مصيرها المجد، ولا ينسى أنْ يذم الحروب لما تحمله من مصائب ورزايا، ثم تتبعها قصائده:

«مأتم الحب» فقصيدة «الكآبة المجهولة» فقصيدة «شكوى اليتيم» ثم «الزنبقة الذاويه».

وفي سنة ١٩٢٧ نجده يكتب: يا شعر، إلى الطاغية، السآمة، أغنية

الأحزان، الدموع، أيها الليل، المجد، الحب، جدول الحب بين الأمس واليوم، سر مع النهر وهي ثلاثة أبيات ويعتقد أن بقيتها ضاعت، ثم قصيدة الذكرى.

أما في سنة ١٩٢٨ فنجده يكتب: الطفولة، قالت الأيام، المساء الحزين، بقايا الخريف، أغنية الشاعر، في فجاج الأيام، مناجاة عصفور، يا رفيقي، إلى الموت، إلى عازف أعمى، صوت تائه، قبضة من ضباب، نشيد الأسى، قلت للشعر.

وفي سنة ١٩٢٩ يكتب القصائد التالية: يا ابن أمي، أغاني التائه، إلى قلبي التائه، أكثرت يا قلبي فماذا تروم، يا موت، التي يقدم لها بقوله: «هي صرخة من صرخات نفسي المملوءة بالأحزان والذكريات، وشظية من شظايا هذا القلب المحطم على صخرة الحياة، قلتها في أيام الأسى التي تلت نكبتي بوفاة الوالد رحمه الله». ويلي ذلك «قصيدة إلى الله»، وقد نظمها ونفسه سكرى بأحزانها الدامية وآلامها المتشحة باللهيب حسب تعبيره.

وفي سنة ١٩٣٠ يكتب: «النبي المجهول» الأبد الصغير، صفحة من كتاب الدموع، الجمال المنشود أو إلى أفروديت، طريق الهاوية، يا حماة الدين، شجون، الأشواق التائهة.

أما في سنة ١٩٣١ فقد كتب القصائد التالية: أحلام شاعر، قيود الأحلام، وقصيدة لم يضع لها عنواناً بدأها بقوله:

أرى هيكـل الأيـام يعلو مشيـدا   ولا بـد أنْ يأتي على أمـه الهدم

ثم قصيدة: رثاء فجر، أنا أبكيك للحب، أبناء الشيطان، صلوات في هيكل الحب، أراك، فكرة الفنان، سر النهوض، قلب الأم.

وفي سنة ١٩٣٢ يكتب: حديث المقبرة، في ظل وادي الموت، الساحرة.

أما في سنة ١٩٣٣ فيكتب: الجنة الضائعة، السعادة، من أغاني الرعاة، أيتها الحالمة بين العواصف، للتاريخ، صوت من السماء، ذكرى صباح، الرواية الغريبة، الصباح الجديد، الحاني السكرى، إرادة الحياة،

تحت الغصون، إلى الشعب، الناس، متاعب العظمة وهي بيتان وأعتقد أن بقيتها قد ضاعت، ثم نشيد الجبار أو هكذا غَنّى بروميثيوس، ثمّ زوبعة في ظلام.

وفي سنة ١٩٣٤ وهي سنة وفاته، نجده يكتب: الاعتراف، قلب الشاعر، إلى طغاة العالم، الغاب، حرم الأمومة، شكوى ضائعة، الدُّنيا الميتة، فلسفة الثعبان المقدس.

وتبقى هناك قصائد بدون تاريخ مثل: قال قلبي للإله، زئير العاصفة، إياك، كهرباء الغرام، صيحة الحب، وعود الغواني، ليلة عند الحبيب، ليت شعري، في سكون الليل، إلى البلبل وقد أرَّخ لها الدكتور عز الدين إسماعيل سنة ١٩٢٨ وكذلك دموع الألم في السنة نفسها، ومن القصائد المجهولة التاريخ نجد: الأديب، أنسيم يهب، الفتنة الساحرة، الحياة.

هذه هي قصائد ديوانه كما رتبها الدكتور عزّ الدين إسماعيل، وقدم لها، ومن الملاحظات التي أجدني مهتماً بإيرادها ما يلي:

١ ـ كانت بداياته الشعرية في الغزل كما قدمت في موضع سابق، وقد أثبت الديوان أن أول قصيدة قالها هي: «الغزال الفاتن» وكان عمره أربعة عشر عاماً، وأتبعها بقصيدة غزلية كذلك، وبعد ذلك بدأ شعره يأخذ مضامين أخرى، حيث بدأ بالاقتراب من القضايا الوطنية والقومية والإنسانية شيئاً فشيئاً، إلى أن خاض فلسفة الوجود ذاته.

٢ ـ المتصفح لديوان الشابي، يجد أنَّ بذور القصة الشعرية واضحة تماماً لديه، ففي قصيدة: الثعبان المقدس مثلاً، نلتقي مع مقومات القصة الشعرية، ومثلها قصيدة: قال قلبي للإله، وقصيدة زئير العاصفة، وقصيدة الجنة الضائعة، ففي هذه القصائد وأمثالها، نجد الوحدة العضوية قائمة، والسرد القصصي واضحا.

٣ ـ الدارس المتعمق لشعر الشابي، يلاحظ ما فيه من صور فنية رائعة، فلوحاته الفنية تعج بالألوان المتعددة، وهي مع كثرتها وتعددها متناسقة في

إطار فني بديع، فهو يلجأ إلى الطبيعة كغيره من الرومانسيين، يلتمس منها صوره، فها هو يصور الدهر إنساناً حذاؤه النار، وهذه الصورة تساير سخريته من ضعف الإنسان، ثم إنه يصور الأرض محشوة بالآثام، والشر مارد جبار، يطوف بأرجائها، والليل عنده أبو البؤس والأهوال، بل إنه الهيكل الذي يضم الحياة، ثم إننا نراه يخاطب الزنبقة كأنها كائن حي يسمع ويعي، وله قلب يخفق وآذان تسمع، وهو في أثناء صوره، كثيراً ما يقدم لنا صوراً رائعة، قد يكون أول من ابتكرها، كتصويره الشمس أُمًّا تُرضع الأزهار، ونحو قوله الجراح النجل، حين أراد أنْ يصور ضخامة الجرح، ونحن نعلم أنَّ هذه الصفة للدلالة على سعة العيون، فيقال، العيون النُّجل، أما الجراح النجل فهذا أمر جديد.

ثم إنه في وصفه دقيق يتقصى الجزيئات، فيجلو جميع جوانب الموصوف، فحين يتحدث عن الدموع نجده يصنفها أنواعاً، وكأنه عالم بكل أصنافها، وهذا يدل على عمق التجربة وعلى طول معاناته.

ومن ناحية ثانية فإننا أثناء مطالعتنا لديوانه، قد نقف على استعمالات غربية لبعض المفردات اللغوية، مثل كلمة الطّلام، والتي عنى بها الشِّدَّة، مع أن الطَّلم في القاموس معناها من بين معان أخرى وسخ الأسنان، فقد وردت في قوله: صولة الأسى الطلاّم، ومثل لفظ تقرطعا، فهو موغل في البداوة كذلك، هذا بالإضافة إلى إيراده كلمات تحتوي على حروف مكررة ومتقاربة، ولا يخفى ما في هذا من ضياع لفصاحة اللفظ نفسه.

ويلاحظ على قصائده بصورة عامة ما يلي:

١ ـ قلة إنتاجه في سنواته الأولى، مع قلة أبيات القصيدة نسبيا.

٢ ـ قوة بداياته الشعرية، الأمر الذي يجعلني أعتقد بوجود محاولات سبقت ما أثبت في ديوانه، ضاعت أو لم يرد إثباتها.

٣ ـ بدأت القصائد تطول مع تقدم تجربته، كما أخذت طابعاً جديداً فيه شيء من العنف وتبديل في المضامين، حيث بدأ يضمن أشعاره قضايا وطنية

وإنسانية، إلى أن وصل إلى القضايا الفلسفية المتعلقة بالكون وبالوجود وسر الحياة.

٤ ـ له محاولات في تجديد بنية القصيدة العربية، وإن أغفل مؤرخو الأدب هذه الحقيقة، فإن قصائد ديوانه تثبت أنه قلد الأندلسيين، كما أنه تخلص من رتابة حرف الروي الذي درج عليه الشعراء الكلاسيكيّون، وكتب على نظام التقسيم الذي ينسب إلى جماعة الديوان في العصر الحديث، ثم إن قصيدة مأتم الحب أقرب إلى بدايات الشعر الحر منها إلى أي نوع آخر من الشعر.

واستكمالاً للبحث سوف أتحدث عن الأمور التالية:

أ ـ التجربة الشعرية من حيث: عمل الحس والخيال، وعمل الذهن والتنسيق ويشمل وحدة العاطفة، وما تتألف منه لوحاته الفنية وحسن الترتيب والتنسيق.

ب ـ البيان: ويشمل الجلاء والوضوح في الأسلوب وما يلفت النظر من جمال فنيّ.

أ ـ التجربة الشعرية:

١ ـ الحس: الإحساس بالقضايا التي طرحها الشابي في شعره إحساس ينبض بالحياة في كل معنىٍ من معانيه، فنحن نشعر ونحن نقرأ أشعاره التي قالها في مناهضة الظلم، أننا أمام إنسان قاسى من الظلم والحرمان، حتى لكأنما قد أصبحا من سماته البارزة، وهو في هذا يأتي في طليعة شعراء مقاومة الطغيان والظلم، فالصيحة التي أطلقها الشابي، لم تكن إقليمية ولا عربية، بل صيحة إنسانية، تخص الإنسان أينما كان وأيا كان، ولم يكن هذا ليتأتى لولا عمق التجربة وعمق الإحساس بتلك التجربة، على أنّ عمق الإحساس هذا، هو الذي جعله يشعر بالغربة في وطنه، وبين بني قومه، وما هذه إلا غربة الإحساس، فهو يحس أكثر مما يحسون، ويتألم لضعف إحساسهم، وهو يتصور الأمور ويجسدها على حقيقتها، لا كما يحسونها ويصورونها، ولهذا فقد أفنى عمره وهو يحاول إيقاظ الأرواح الخامدة، وهو

في صيحته تلك، قد تخطى حدود تونس والبلاد العربية إلى الإنسانية جمعاء، وبهذا استحق بأن يوصف بالعالمية، واستحق بأن يوصف بشاعر المظلومين.

ومما يدلنا على رهافة حسه، ذلك التبدل الذي نلاحظه في نظرته للحياة فحينا نلقاه يعكس روحاً مرحة، تعشق الجمال، وتحب الحياة لكل ما فيها من جمال، وحينا آخر نلقاه حزينا يلعن الحياة وما فيها من قسوة وشقاء، ويهاجم الحب لما ابتلي به، وما كان لهذه الأمور أنْ تكون، لو لم يكن يتمتع بشفافية صافية، ونفس رومانسية حالمة بعالم يسوده الحق والعدل والجمال.

٢ ـ **الخيال وعمل الذهن**: امتاز الشابي بخيال واسع، وهذا ما ساعده على الإجادة فيما يقول، فوضوح الرؤيا لديه يجعله قادراً على تكوين صوره وتشكيلها، تماماً كما يفعل الرسام الماهر الذي يرسم الطبيعة فينقلها من الواقع المجرد أمامه إلى رسم مصغر يَشِفّه شفا، كذلك كان الشابي في لوحاته الشعرية رساماً ماهراً بفضل ما لديه من خيال وذهن قادر على استحضار الصور الشعرية التي يريد التعبير عنها.

وقد تكون لطبيعة تكوينه الرقيقة، وما صاحبه من علّة تضخم داء القلب، وموت حبه الأول في ميعة الصبا، قد يكون لكل ذلك أثر كبير في رقة شعوره وسعة خياله، كما أنّ لصلته المباشرة بالثقافة العربية، وغير المباشرة بالثقافات الغربية، أثر كبير في صفاء ذهنه ورقة تعبيره، فلا أحد يجهل أثر الثقافة الواسعة في سعة الخيال، ولا أحد يجهل أهمية الخيال للشاعر، وسعة الخيال مرتبطة تمام الارتباط بعمق الإحساس بالقضية التي يتحدث عنها الشاعر، إنها أمور متشابكة مترابطة، لا تنفصم عراها، ولا بد من الاهتمام بها جميعا.

لو استحضرنا أمامنا قسماً من الصور الفنية التي رسمتها أشعاره، لاتضح لنا عمق الخيال، علاوة على ما نستطيع استجلاءه من صور نفسية، كتلك اللوحات الفنية التي عبّر بها عن مدى إحساسه بضعفه أمام ما يجري في بلاده دون أن يستطيع إحداث شيء، الأمر الذي يترك الكثير من المرارة

في نفسه، ولهذا كانت ثورته عارمة شملت كل شيء، ومع كثرة الصور الفنية التي تصورها أشعاره، فإننا لا نجدها متزاحمة متراصة، بل إنها منظمة بحيث تسير كل واحدة فيما خصصت له، فصورهُ اللفظية متناسبة مع صوره المكانية، الأمر الذي يوجد نوعاً من التلاحم بين صوره ووجدانه، وأثناء هذا التلاحم، تبرز أفكاره متناسقة دون فتور، وما كان لهذا أن يتأتى له لولا سعة خياله ورهافة حسه، وتجاوب فكره مع هذه المعطيات.

٣ ـ التنسيق: فكما اهتم الشابي بالحسِّ والخيال، يجلو بهما الصور الغامضة، فقد اهتم بتنسيق أفكاره، فلا نراه يتحدث عن فكرة معينة قبل أن يجلوها، ويحس بأنه لم يبق هناك ما يزيد عليه، وهو يحسن الانتقال من الجزئيات، وليس معنى هذا أن قصائد ديوانه قد خلت من كل عيب، فهناك قصائد قد تدنت في مستواها الشعري، إلى جانب تلك التي سمت بمعانيها، في حين جاءت تراكيبها مفككة، وأحياناً أخرى نجد المعاني غامضة لاختلاط بعضها ببعض، ولكن مثل هذه الأمور قليلة في شعره.

إن سلامة البنية العضوية لقصائد الشابي، يدل عليها هذا الترابط المحكم بين صوره، وذلك التسلسل المنطقي الذي يسري في ثناياها، فهي تتداعى لديه متسلسلة متتالية، فهو يبني قصيدته، كما يبني البنَّاء الماهر البناء، حيث يأتي متماسكاً متناسقاً، تشد لبناته بعضها بعضا، وكذلك أشعار الشابي في تكاملها وترابطها، تشعر القارىء أنه أمام فنان بارع، يجيد استعمال الألوان في قصائده فتتحقق الوحدة العضوية للقصيدة بكاملها.

ب ـ البيان: لقد تحقق الجلاء والوضوح لأشعار الشابي، باستثناء بعض الصور الغامضة التي استمدت غموضها من مذهبه الرومانسي، على أنه يمكن القول بأن السمة الغالبة على أشعاره، هي البساطة والوضوح، فليس فيها فقر لغوي ملفت للنظر، كما أنه ليس بها سفسطائية تدعو للملل، حتى قصائدة التي سجل فيها أفكاره الفلسفية حول الوجود والحياة والكون، فقد خلت من أي تعقيد، فلو أخذنا على سبيل المثال قصيدته: (حديث المقبرة) فإننا نجدها واضحة العبارة سهلة الأسلوب.

أما الأَشكال البديعية، فقد كثرت في شعـره ولكن دون أنْ تكون مقصودة لذاتها، فنحن نجد الاستعارة والكناية والتشبيه، والمجاز، وغيرها من ألوان البديع، يسوقها في قالب جميل، لا يقحمها على أشعاره، وإنما تأتي طبيعية في مكانها المناسب، فلا يخدش حياءها، فتراها تمر سهلة غير متكلفة، حتى في تراكيبه اللغوية التي أحدثت دلالات جديدة، فهي سهلة على الأذن، حلوة النغم.

ومن ناحية ثانية، فإنه يورد صوره الشعرية بتتابع جميل، غير مقتصرة على فكرة بعينها، ولا على شعور بذاته، وهي ليست منقطعة عما قبلها، فالصور المتتالية، يجلو السابق منها اللاحق، والتجارب تجلو بعضها بعضا، فكل تجربة توحي بتجربة أخرى تليها، وهذه من الطرق الرمزية في التعبير.

هذا هو الشابي في ديوانه الذي كان على قصر المدة التي عاشها أُستاذاً في إيقاظ النفوس من غفوتها، وصوتاً ملائكياً، يدفع الإنسـان من أَجل المطالبة بكرامته وحريته واستقلاله، ولقد آمن بالإنسان القوي، وبفكـرة شاملة، تكاد ترقى إلى نظرية في مكافحة الظلم ومجابهة التحدي وفي سلب حقوق الآخرين، فلقد كان ولا يزال عملاقاً في عالم الفكر والأَدب، جهلَ الكثيرون أُفكاره، وعجزوا عن مجاراته فرموه بالإلحاد وهو منه براء.

المحتويـات

بين يدي البحث .... ٥ - ٦
المقدمة .... ٧ - ٩
حياة الشاعر في سطور .... ١١ - ١٦
مضامين شعره .... ١٧ - ٢٥
الحياة والناس ٢٦ - ٣٤
فلسفة الحياة ٣٥ - ٤٤
حديثه عن نفسه ٤٥ - ٤٩
المرأة في شعره ٥٠ - ٥٧
محاولاته في تجديد بنية القصيدة .... ٥٩ - ٦٣
اللغة ودلالة الألفاظ في شعره ٦٥ - ٧٤
فلسفة الشابي .... ٧٥ - ٨١
بين الشابي وأقرانه الشعراء .... ٨٣ - ٨٩
الديوان في الميزان .... ٩١ - ١٠٠

دار الفكر
للنشر والتوزيع

عمّان - سوق البتراء (الحجيري) - ساحة الجامع الحسيني
هاتف: ٦٢١٩٣٨ - ص.ب: ١٨٣٥٢٠